الفصل التاسع

البوابات الجنوبية

بعد أن قطعت سياق روايتي أحداث عدن، أعود الآن لمواصلة سرد أسفاري.. تخطينا بوابة (الشحر) الرئيسة (الشمالية) وعطفنا (من الطريق العام) إلى شوارع جانبية قادتنا في نهاية الأمر إلى منزل الضيافة الخاص بعشيرة آل الكاف. والمنزل عبارة عن مبنى أبيض اللون، نظيف ومكوّن من طابقين، مقام في فناء صغير يحيطه سور، وكان يقف أمام باب المنزل مجموعة من الأطفال ينظرون بانشداه واستغراب إلى السيارة ومحتوياتها، بينما قام الدكتور محمود خواس، الطبيب المحلي، باستقبالنا ببشاشة نيابة عن مضيفينا الغائبين، الإخوة الثلاثة من عشيرة آل الكاف والذين يتوقع وصولهم من مصر على ظهر المركب القادم. انتقلنا إلى الطابق العلوي حيث غرفة الضيافة الرئيسة وكان بصحبتنا حشد من الزوار، كأنما انشقت بهم الأرض حال سماعهم إشاعة وصول غربي إلى الديار، لقد كان هاجسي الوحيد وقتها هو الاستحمام وتغيير ملابسي، ولهذا طلبت تخصيص غرفة لشخصي ثم صعدت إلى الدور العلوي حيث وضعت مجموعة من الغرف الصغيرة تحت تصرفي، ويبدو من النفايات المتراكمة أن هذه الغرف لم تستعمل منذ فترة، إلا أن مجموعة من عمال النظافة تمكنوا -في وقت وجيز- من تنظيف إحدى الغرف بحيث أصبحت ملائمة للسكن. وفي هذه الأثناء صعدت إلى سطح المنزل لإلقاء نظرة عابرة إلى معالم المدينة وجوارها المباشر. بعد ذلك نزلت إلى الغرفة التي تم تخصيصها لي ووجدتها مفروشة بالسجاد كما وجدت في انتظاري حشداً من الزوار ملؤوا الغرفة على سعتها وكان عليّ -والحال كذلك- تأجيل الحمام وتغيير الملابس لتسلية هذا الحشد والتحدث إليه.

كان ممثل عشيرة آل الكاف (في هذا الحشد) هو سعيد شيخ الشتيري، وقد ألحّ عليّ كثيراً بزيارته في منزله لتناول طعام الغداء أو وجبة أخرى وقد اعتذرت له بأنني لن

أحتاج إلى وجبة الغداء في ذلك اليوم، خاصة وأن الدكتور الخواس يقوم بتحضير وجبة الإفطار، إضافة إلى أنني لن أتمكن من قضاء الليلة بمدينة الشحر، حيث يتوجب علي أن أكون بمدينة المكلا في وقت مبكر. وكان -وسط الحشد المذكور- زائر آخر مهم هو الشيخ صالح صقر، قائمقام أو حاكم الشحر، وهو سيد كبير في السن يستعمل الحنَّا لإخفاء آثار السنين عليه. وعند زيارتي له، فيما بعد في قصره الكبير المتداعي للسقوط وجدت أنه من الدعاة المتحررين لاستعمال بذرة معدى، الغوفل (التامبول) وقد كان هو ومن معه -في ذلك الحين- يمضغون تلك العشبة بمتعة شديدة وبجانبهم مبصقات معدنية يرمون فيها فتات ما يمضغون.

قام الدكتور حواس: بعد أن تعرف على عاداتي من الذين يرافقونني في أسفاري، بوضع تُرمُس معبأ بالشاي بجانبي، بينما قُدمت القهوة العربية إلى بقية الضيوف. وكان الحاضرون تواقين إلى سماع "أخبار ابن سعود" وأخبار الرحلة بالسيارة عبر الصحراء واحتمالات أداء فريضة الحج بالسيارات بدلاً عن الدواب... إلخ. وقد طالت جلستنا في حديث يبدو أنه بلا نهاية وكان تُرمُس الشاي العملاق يزودني بما يساعد على الصبر والإلهام. وقد يسعد المرء أحياناً أن يكون جالساً هكذا دون عمل أي شيء محدد، لقد ألمحت للدكتور حواس، الخبير المحلي بعادات الأوروبيين، بأنني لن أتناول إفطاري قبل الاستحمام وأنني لا أنوي الاستحمام أمام هذا الحشد الكبير من البشر. وبدأت حشود الأطفال والمتسكعين والضيوف في مغادرة المكان تدريجياً ومن ثمّ فتحت حقيبة السفر وأخرجت منها ملابس نظيفة.

لقد لاحظت أن بالغرفة أبواباً أكثر مما هو ضروري، وأن معظم هذه الأبواب مصنوع من الزجاج، إضافة إلى أنها غير قابلة للإغلاق تماماً، كما لاحظت أن بعض الأطفال وبعض الكبار والذين لم يسمح لهم بالدخول لاستقبالي نظراً لمنزلتهم الاجتماعية المتدنية، كانوا يتجولون أمام الأبواب الزجاجية الشفافة، آملين رؤيتي وأنا أغير ملابسي. وعندما استدعيت محموداً وأخبرته بأن من حقي أن تكون لي

خصوصيتي، وأن أمنح متسعاً من الوقت للاغتسال والوضوء بعيداً عن الأنظار، أجاب محمود «إنني على استعداد تام لتقديم كافة الخدمات لكم». وقد كان وفياً بعهده، ذهبت إلى الحمام واغتسلت وغيرت ملابسي بدون أي تطفل من الآخرين، بعدها وصل الطبيب ليعلن أن وجبة الإفطار جاهزة وكانت تتكون من دجاج مقلي مع كاري خفيف إضافة إلى بيض وخبز، أجابني الطبيب بعد أن شكرته على الوجبة الممتازة وكرم الضيافة بقوله: «إنني أسعد كثيراً بمقابلتك». وأعتقد أن الرجل سعيد حقاً برؤيتي ومقبلتي، فقد أخبرني كيف أنقذ حياة فريا ستارك وعرض عليّ شهادة شكر وتقدير، ممهورة باسمها، حيث عبّرت له عن أمانيها بأن يتبوأ المكان اللائق به كطبيب ماهر بدلاً من الوظيفة المتواضعة في مدينة الشحر براتب شهري قدره ٦٠ ريالاً على نفقة حكومة السلطان. وحقيقة الأمر أن ليس للدكتور خواس أي اعتراض أو تحفظات تجاه مدينة الشحر غير أنه يدرك تمام الإدراك أن بإمكانه الاستمتاع بمزايا الحضارة والتقدم في أي مكان آخر، مثل مدينة عدن التي تلقى فيها دراسته وحيث إنه -فيما أظن- أحد مواطنيها، وعلى كل حال فللدكتور شخصية لطيفة وساحرة.

وكان عليّ تذكير الدكتور برغبتي في مشاهدة بعض معالم المدينة أولاً، ثم تلبية دعوة السلطان والتي سبق أن قدمها لي وقبلتها ثانياً. سألني الدكتور «هل نركب السيارة أم نسير مشياً على الأقدام؟»، ويبدو أنه ارتاح كثيراً عندما أجبته برغبتي في المشي سيراً على الأقدام. بدأت الجولة الاستكشافية بمشاهدة بعض معالم المدينة والتي تبدو عليها سيماء الفقر والتواضع، في الوقت الحاضر على الأقل، ومن الواضح أنها شهدت عصوراً ذهبية في الآيام الغابرة، ومع ذلك فسيكون لها مستقبل جيد ما كانت تحلم به، خاصة مع اكتمال طريق السيارات إلى تريم. لقد أُنعِمَ على الشحر بواحد من أسوأ الموانئ في العالم، وهو عبارة عن مرسى مفتوح في مواجهة ساحل رملي ممتد تتكسر عليه الأمواج العالية. كانت البواخر الصغيرة القادمة من عدن والمراكب الصغيرة الأخرى ترسو بعيداً عن الشاطئ بينما يتم تحميلها وتفريغها من البضائع

والركاب بواسطة صنادل كبيرة، وتتولى أطقم قوية ومدرّبة من الزنوج مهمة تجديف هذه الصنادل ويبدو عليهم وهم يقومون بهذا العمل الشاق، سيماء المرح والابتهاج: بالرغم من المخاطر العالية، وكان ينتابني إحساس قوي بأن هذه الصنادل سوف تنقلب رأساً على عقب، ومن المدهش أنها لا تتعرض لهذا الأمر. لقد تعرضت لتجربة قاسية مع إحدى هذه المراكب، وأتمنى ألا يتكرر الأمر معي.

إن مرحلة بداية رحلة خارجية هي بالطبع أكثر المراحل إثارة وتشويقاً، يرتفع القارب الصغير في مواجهة الأمواج المتكسرة القادمة ويتحول إلى جانبه العريض ثم يرتفع مرة أخرى ثم يستعيد المركب توازنه فوق الماء ويشق طريقه بجهد بينما تكون مقدمته أو مؤخرته، لا فرق في اتجاه العدو. وكل ما أتذكره -في هذه التجربة- أن النهايتين متشابهتان تماماً وأنه يمكن التمييز بينهما، في أي لحظة كانت بواسطة الإحساس بالاتجاه. ولا يتحقق التوازن الكامل للمركب إلا عندما تكون وسط لياد العميقة حيث ينبغي على الطاقم التجديف بكل ما أوتي من قوة ومهارة، وحيث يستعيد الركاب الآخرون جَلَدَهم ويطردون مخاوفهم. والمرحلة الحرجة، عند العودة للشاطئ، هي لحظة اصطدام القارب بالرمل. وأشهد أن أطقم هذه القوارب تتمتع بمهارات مذهلة للغاية مع أن الأجر الرسمي لرحلة العودة زهيد للغاية ويكاد لا يساوي أي شيء، وكان يقيني أنني لن أدفع لهم أقل من أربعة أضعاف القيمة المقررة رسمياً، ولقد اكتشفوا "إبريقاً" وطالبوا بالمزيد وفي النهاية نالوا مرادهم. وما لم يستوعبه تماماً أن هذا الكرم من ناحيتي لا يساوي قطرة من محيط مهاراتهم الفائقة.

يوجد كوخ أو كوخان على خط البحر (الماء) وهي عبارة عن مكاتب سلطات الجمارك، غير أن البضائع التي يتم تفريغها من السفن تظل مبعثرة على طول الساحل حتى حضور أصحابها لاستلامها. لقد أوكلت مهمة تحصيل الرسوم الجمركية بمدينة الشحر، بما في ذلك رسوم الدخولية (البلدية) المقررة على البضائع الواردة إلى المدينة أو الخارجة منها إلى أحد تجار قوجراتي واسمه عبدالله جعفر، هو ينتمي إلى ضفة

الشيعة وذلك بمبلغ وقدره ١١ر٠٠٠ ريال في الشهر. وفرضت ضريبة مقدارها ريالان على كل حمولة داخلة إلى المدينة أو خارجة منها، بينما حددت تعريفة الجمارك البحرية بمقدار ٥٪، ٨٪ أو ١٠٪ حسب القيمة المنصوص عليها في فاتورة الشراء ووفقاً لنوعية البضائع، كما تم تخصيص ضريبة خاصة بالتبغ الذي يمثل الإنتاج الرئيس لسواحل حضرموت. قدرت ضريبة التبغ بين ٦٠-٧٠ ريالاً لكل عبوة مقدارها ٣٠٠ طن، وتتراوح قيمتها بين ٦٠-٧٠ ريالاً، وهذه تمثل على وجه التقريب ٢٠٪ لقد كانت السلطات المسؤولة تفكر -وقت زيارتي للمدينة- في إلغاء نظام تكليف أفراد بعينهم مهمة جباية الضرائب نظير مبلغ محدد مقابل أتعابهم ومسؤولياتهم وأدخل نظام جمع الضرائب المباشر، ومما لا شك فيه أن هذا النظام المقترح -إذ طبّق بمصداقية وأمانة- سوف يزيد الربط السنوي الحالي للجمارك والرسوم التي تبلغ مئة واثنين وثلاثين ألف ريال (١٣٢ر٠٠٠) سنوياً (حوالي ١٠ر٠٠٠) عشرة آلاف جنيه إسترليني من الشحر وحدها.

بعد انتهاء زيارتي للحاكم، سجّلت زيارة خاصة إلى التاجر عبد الله جعفر وقد زودني بالإحصائيات والبيانات أعلاه. كما رحب بي كثيراً وغمرني بكرم الضيافة وقدم لي وجبة خفيفة من البسكويت والفواكه المعلبة. لقد لفت انتباهي أن السوق المحلي لا يخلو من بعض القذارة والفوضى والتصدّع ومع ذلك يبدو أن السلطات مهتمة بأمره ورعايته. لقد خصص الطابقان الأرضي والأول لمؤسسة عبد الله جعفر كمكاتب للأعداد الكبيرة من الكتبة والموظفين الذين يعملون في المؤسسة، أما حسابات وسجلات المؤسسة فهي محفوظة في قوجراتي. أما الطابق العلوي والذي خُصص لأسرة عبد الله جعفر فتبدو عليه آثار النعمة والبهجة. كان مضيفي حزيناً بعض الشيء بسبب احتمال فقدان مهمة جباية الضرائب التي تديرها مؤسسته لسنوات طويلة. إن الجالية التي ينتمي إليها عبدالله جعفر، وتشمل قليلاً من التجار

الأقل ثراء منه هي الجالية أو العنصر الأجنبي الوحيد المقبول في مدينة الشحر الأوروبيون لا يجدون أي تشجيع أو مباركة للإقامة هنا أو في المكلا، ومع ذلك ومنذ زيارتي فقد رأت الحكومة البريطانية أنه من الأنسب تعيين ممثل رسمي لها في المكلا تحت اسم (مقيم)، تماماً كمن يضع الطرف الحاد من الفأس فوق جذع شجرة ضاربة في العراقة والقدم يحرص أهلها على المحافظة على استقلالها وتفرّدها.

أما قصر الحاكم فهو عبارة عن مبنى رائع التصميم ويتكوّن من عدة طوابق، وإن بدت عليه آثار السنين والإهمال، ويطل القصر على حصن قديم بالقرب من النهر يُعرف بقصر ابن عياش، وينسب إلى الأمير عبد الله بن عمر القعيطي الذي جعل من الشحر عاصمة له. وتوجد بالقرب من هذا القصر بقايا مبنى يبدو أنه شيّد في تاريخ سابق إلا أنني لم أتمكن من زيارة هذا الموقع الأثري. ولاحظت أن السور الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات (عدا جهة البحر) كان في حالة جيّدة مما يدل على الاهتمام بصيانته والعناية به، ولهذا السور بوابتان تتميزان بأشكال معمارية رائعة، البوابة الأولى تقع بالجهة الشمالية وقد سبق أن أشرنا إليها آنفاً، أما البوابة الأخرى فهي بالسور الغربي وقد قامت عائلة آل الكاف في السنوات القليلة الماضية بتشييد مجموعة من المباني رائعة التصميم والتنفيذ وذلك في أقصى الجزء الشرقي للمدينة.

هذه إذن بعض الملامح العامة لمدينة الشحر التي تمكنت من مشاهدتها والوقوف عليها على الرغم من الوقت القصير المتيسر لنا. وعند عودتي من هذه الجولة الاستكشافية الخاطفة وجدت سيارة تقف أمام الباب لنقل المجموعة المرافقة إلى مدينة المكلا. بدأت الرحلة عند الساعة الثانية ظهراً على الطريق الذي أتينا به وبعد حوالي تسعة أميال انحرفنا في اتجاه الغرب إلى المكلا، وهذا الطريق هو الأطول والأكثر وعورة الذي يربط بين المرفأين، ذلك أن الطريق الأقصر والأسهل لا يمكن استخدامه أثناء فترة هبوب الرياح الموسمية، حيث تغمر مياه البحر الطريق المحاذي لخط الماء تماماً.

وبما أن الشحر والمكلا لم تخضعا في كل الأوقات لحاكم واحد، إلا أنهما ظلتا في اتصال ثقافي متميّز بالعادات والتقاليد والممارسات المتشابهة. لقد استمدت المراكز أسماءها من أسماء المرافئ التي لها السيطرة الإدارية واليد العليا، مع أنه ليس بالضرورة القاطعة أن تكون هذه المراكز امتداداً للمرافئ. ومن الجدير بالذكر أن أياً من هذين الموقعين المحليين لم يكن يحمل هذا الاسم في المصادر التاريخية القديمة. ويبدو أن السبب وراء ذلك هو أن كل الساحل الجنوبي للجزيرة العربية لم يكن ملائما ولا مضافاً للبحارة الذين يجوبون تلك المناطق مما حتّم أن يكون موقع اتصالاتها البحرية محكوماً بما يدور في الداخل، بعيداً عن الموانئ والمرافئ الساحلية، لهذا السبب نجد أن قنا (كأنها من قِنا المصرية) تطابقت مع بئر علي وموشا الحديثتين، ومن المحتمل أن تكون إحدى موانئ ظفار التي جذبت اهتمام القدماء.

تعد قنا أقرب الموانئ إلى مراكز الحميريين مثل شبوة وما جاورها، بينما ظلّت ظفار تخدم مناطق إنتاج البخور التي تقع من خلفها. ولم يكن لحضرموت الحديثة -على الرغم من أنها كانت وما زالت مصدراً مهماً للإنتاج الزراعي الوفير- الأهمية الخاصة التي تمتعت بها مناطق اللبان والبخور وعاصمتها السياسية، ولكن بعد أن فقدت تجارة التوابل أهميتها وبريقها، وبعد أن أصبحت شبوة مهجورة؛ لذلك السبب أو لأي سبب آخر استعاد وادي حضرموت موقعه كمركز تجاري مهم. أضف إلى ذلك أن المرافئ القديمة، مع افتقارها لأي جاذبية تستدعي المحافظة عليها والاهتمام بها على الرغم من بعدها الشديد عن المركز الجديد، قد هُجرت هي الأخرى لصالح الطرق الجديدة الأقصر مسافة. لقد ظلّت شبام تمثل مراكز جذب بالنسبة للاجئين من شبوة، أما المكلا فهي أقرب نقطة يمكن الوصول إليها عبر الساحل من شبام كما أن ميناءها يعد أحسن من أي ميناء آخر على الساحل، أما اسمها في حد ذاته فهو دليل قاطع على احتلالها المبكر.

إن اسم المكلا -في واقع الأمر- مأخوذ من الكلمة الإغريقية "مايكل" وهناك عنصر إغريقي، كما يذكر "الدليل" في جزيرة سقطرى، ولذا ربما لم يتعدَ الأمر

مجرد المصادفة في أن اسم المكلا لم يذكر في الأدبيات القديمة[1]، ذلك أنها ربما لم تكن مركزاً للتجارة الدولية. وقد استبعدها "الدليل" إلى حد ما، وعدّها جزءاً من طريق الساحل، أي جزءاً من التجارة الساحلية فقط دون أن يكون لها أي دور في التجارة العالمية. أما الشحر إذا كانت موجودة منذ القدم، فلديها هي الأخرى نصيبها من الازدراء والإهمال، ولا أظن أن هذا المرفأ على الرغم من إمكانياته المتواضعة إن لم نقل الرديئة، يمكن أن يكون قد أعقب نمو وازدهار شبام، وعلى كل حال يصعب وجود أي رابط لغوي قديم بين الشحر والساحل، ولا يوجد أي ربط بين الاسمين إلا فيما يوجد بين الطباشير والجبن، وإذا جار لي التخمين فإنني أقول: إن أصل ومنشأ الشحر هو اشتقاقها من الشحر[2] الفارسية "المدينة". إن الفرق في اللفظ المتوسط لا يعني بحال اعتراضاً صحيحاً بالنظر إلى الأصل الأجنبي للاسم. وإذا أخذنا اسم بوشاير (بو شهر على وجه الدقة)، فإنه يمثل حالة مشابهة لما نقول.

وعليه يمكن أن نقول بعدم وجود أي ذكر -في الكتابات القديمة- لأي من المرفأين ومع ذلك فيبدو أن السيدة فريا ستارك تنكر أن يكون لهما نصيبهما من الاهتمام القديم الذي تستحقانه، كما أنها تعتقد أن ماركو بولو وياقوت أول من ذكر اسم الشحر كمدينة، وهي تقول على وجه التحديد: «إن أول إشارة معاصرة للمكلا كانت من قبل ابن المجاور في القرن الرابع عشر». وشخصياً لا أدعي بأنني بحثت

---

(١) تذكر المصادر الحضرمية أن «المكلا» دال على مسماه، فأصل مادة كلأ في اللغة مرفأ السفن لأنه يكلؤها من الريح أي يدفع الريح عن السفن ويحفظها، فهو ملجأ لسفن الشحر والواردين إليه من الآفاق عندما يهيج البحر في أيام الخريف لأنه مصون بالجبال بخلاف ميناء الشحر المكشوف. انظر السقاف، حضرموت: بلادها وسكانها، مجلة العرب جـ ٧، ٨، السنة ٢٦، محرم وصفر، ١٤١٢هـ، ص٤٧٠، المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٧، ١٩٨٤م، ص٦٩٢-٦٩٣. (المراجعون).

(٢) اللفظ الفارسي هو "شَهر" ويعني المدينة أو الدولة. انظر، التونجي: المعجم الذهبي - فارسي عربي، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٩٢م، ص٣٨٣. (المراجعون).

الموضوع بحثاً عميقاً، غير أن سعيد بن نشوان[1] قد اقتبس بيتاً من شعر قس بن ساعدة، الذي عاش في أوائل القرن السابع:

وعلى الذي كانت بَموكَل داره

يهب القيان وكل أجرد شاحي

وأورد المؤرخ نفسه النص التالي من قول الشاعر العجاج الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع:

رحلت من أقصى بلاد الرحَّل

من قُلَل الشِّحر فجنبي موكل

لقد كانت البوابات الجنوبية للجزيرة العربية خلال القرن السابع لعصرنا هذا مغطّاة بسديم العصور القديمة، وأن الأسماء التي بقيت في الذاكرة المعاصرة لم تكن "قنا" أو "موشا" إنما التي بقيت هي أسماء الشحر والمكلا ويمكن على الأقل تتبع آثار الاسم الأخير إلى مكلا والتي ظهرت بوضوح تام، بالرغم من موقعها الداخلي البعيد في خريطة بطليموس الشهيرة، في القرن الثاني الميلادي. وقد لفتت فريا ستارك إلى حقيقة أن (اللبان الساحلي) ما زال يسمى (اللبان الشحري)، ونحن في أوروبا ما زلنا نتحدث عن بُن المخا، بينما توقف العرب عن ذلك منذ فترة طويلة. لكن لا يمكن تسمية اللبان أو البن بأنه ساحلي "والأسماء التجارية" على كل حال، قد تكون ملائمة لكنها لن تكون أبداً الدليل القاطع على المنشأ والأصل.

وعند وصولنا نقطة مفترق الطريق، أخذنا الطريق المؤدي إلى المكلا، وهنا ينحرف وادي حويرة في اتجاه الجنوب الغربي ويعبر بعض الحواجز الصخرية التي

---

(١) الاسم الصحيح هو نشوان بن سعيد الحميري، علم مبرز في اللغة والتفسير والنحو والصرف. شاعر فصيح وكاتب بليغ له العديد من المؤلفات في هذه الفنون، وفي التاريخ والأنساب وفاته سنة ٥٧٣هـ، وللمزيد من المعلومات عنه انظر: الأكوع: نشوان بن سعيد الحميري والصراع الفكري والمذهبي والسياسي في عصره، دار الفكر، دمشق، ١٤١٨هـ، وللأكوع أيضاً: هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر دمشق، ١٤١٦هـ، جـ١، ص٥٤١-٥٤٩. (المراجعون).

تشكل الرف الصخري الخارجي الأكثر انخفاضاً لهذه السلسلة الجبلية. وهناك سهل اسفيني الشكل منبسط ومنحدر في اتجاه تدفق الوادي ويوجد في هذا السهل المتيسط عدد من بساتين النخيل التي تتبعثر حولها منازل العاملين، بالإضافة إلى قرية متوسطة الحجم تقع غربي السهل. هذه البلدة اسمها المعيان وهي تقع على الطريق مباشرة، وبالقرب من مفترق الطريق توجد قرية الحبس وبها أيضاً حقل نخيل يملكه سلطان المكلا. وبين هذين الموقعين توجد بساتين الهواء ومعروف، ولا يبدو أي من هذه البساتين والمزارع ذا قيمة اقتصادية تذكر، إلا أن وجود كميات من الماء يمكن الوصول إليها، كانت سبباً كافياً لقيام أنشطة زراعية في هذا الجزء من العالم. ومع ذلك فإن أي إضافة -مهما كانت بسيطة- إلى الإنتاج المحلي تعد أمراً مقبولاً.

يمر الطريق بعد المعيان بمنطقة وعرة وجرداء لعدة أميال قليلة، ولا يوجد بهذه المنطقة سوى حوض وبناية صغيرة من اللبِّن الطيني عبارة عن استراحة لراحة المسافرين، ولكسر جمود ورتابة الرحلة، وفيما وراء الحوض يخترق مجرى وادي حما الطريق حتى يلتقي بوادي حويرة، بينما تنتشر أبراج المراقبة فوق سلسلة الجبال بالجهة الجنوبية. وعند النهاية القريبة لهذه السلسلة المنحدرة إلى الخلف وصل ركبنا إلى ود منبسط وواسع تنتشر فيه العديد من القرى وحقول القمح وبساتين النخيل المثمرة. يدخل الطريق إلى السهل الممتد بين بساتين النخيل في نقب بالجهة اليسرى وسد، التي تمتد إلى حوالي ميل واحد على طول الجهة اليمنى من الطريق. وتوجد بالأخيرة قريتان صغيرتان وبقايا حصن قديم يسمى حصن العوالق، وهو الأثر الوحيد الباقي لسلالة العوالق والتي كانت تقيم بهذه المنطقة قبل وصول العشيرة القعيطية.

أما المستوطنة الأخرى والأكبر فهي القارة والتي كانت تنتمي -في تلك الأيام- إلي بيت آل بطاطي المنافس، أما القرية الأصلية والحصن الذي يحرسها (حصن البطاطي) فقد أصبحت أثراً بعد عين وسط بساتين النخيل وحقول القمح؛ وتمتد القرية الجديدة، التي تنقسم إلى جزأين، على طول سلسلة منخفضة في محاذاة السهل

الصالح للزراعة. وفيما وراء القارة وعند النهاية الغربية للسهل، تقع الغيل والتي تعد أكثر ثراء وأهمية في الوقت الحاضر. وتليها قرى بلحماس وظهبان النائية. وتتبع معظم مزارع وبساتين الغيل إلى ملكية التاج المكلي. وقد كنت في عجلة شديدة من أمري، فلم أتمكن من البقاء لوقت أطول للتعرف عن كثب على هذه المنطقة ولكن نظراً لأنني قد أتمكن من عبور هذه المنطقة مرة أخرى في طريق عودتي فسوف أترك تفاصيل وصفها إلى نهايات هذا الفصل من الكتاب، وتكفي الإشارة إلى أن سهل هذا الوادي يعد -بلا منازع- منطقة إنتاج التبغ، موطن ورقة نبات الحمومي المشهورة جداً، ولهذا السبب كانت المنطقة مركز القيادة لساحل حضرموت. لقد اندثرت بيوت البطاطي والعولقي وبقيت أنقاضها ومن ثم آل الحكم لسلطان الشحر والمكلا دون منازع. وهكذا ازدهرت الغيل كما سنرى لاحقاً، وهي تساهم بقدر كبير جداً في الدخل القومي للدولة. وقد صادف وقت زيارتي موسم جمع وحصاد التبغ، وفيما عدا مناطق زراعة الدخان وأشجار النخيل، فإن ما تبقى هو مناطق بائسة ومقفرة إضافة إلى صخور جبلية غير قابلة للاختراق أو الزراعة.

وبعد أن تخطينا الغيل دخل الطريق مجرى وادي الغصن وتبعه لمسافة قصيرة. يبلغ عرض وادي الغصن حوالي ثلاثين ياردة، ويشق الوادي طريقه بين ضفتين ارتفاعهما عشرين قدماً، وتتكون من حجر جيري هش ومتآكل، وهذا الوادي يصرف مياه منطقة الغيل إلى البحر عند مدينة الشحير، هذا الطريق يستخدم في موسم الجفاف فقط، ، وهناك طريق آخر يتجه شرقاً عبر منطقة حجرية مرتفعة بعيداً عن مجرى الوادي، ويفترق الطريقان عند ظهبان ويلتقيان مرة أخرى بعد حوالي أربعة أميال، يجتازان سهلاً حجرياً وعراً يمتد حتى مشارف الشحير، وبعد ميل واحد من ملتقى الطرق أعلاه يعبر قناة شضب الضيقة ليلتقي مع وادي الغصن ومن ثم يستمر الوادي المتحد في جريانه حتى يلاقي قناة وادي الشحير على بعد مسافة غير بعيدة أعلى القرية.

أما الشحير نفسها فهي مستوطنة كبيرة ومتسخة تقع عبر سلسلة الضفة اليسرى للوادي على حوالي ميلين من مصبه. وهناك مجموعة من بساتين النخيل متفرقة حول الأرض المنبسطة أو على طول ساحل البحر، هي من أملاك القرويين أنفسهم. المبنى الوحيد اللافت للنظر في هذه المنطقة هو منزل الحاكم المحلي وهو عبارة عن بناية مرتفعة تشبه الحصون العسكرية، وخلف القرية يوجد الوادي الذي يبلغ عرضه حوالي نصف ميل ويرتفع لعدة أميال فوق سطح البحر وتنتشر فيه البرك والمستنقعات التي تكوّنت بعد السيول. وتتوفر المياه بصفة مستديمة في هذا الوادي ومع ذلك فإنها لا تعيق حركة سير المواصلات في الأوقات العادية. وفيما عدا ذلك وتحديداً في موسم الأمطار والسيول فإن حركة السير تتوقف تماماً. وأثناء رحلة عودتنا علقت سيارتنا تماماً في الأرض الطينية الموحلة. ويوجد بالناحية الغربية طريق آخر مرتفع تم تعبيده وإصلاحه لتسهيل حركة مرور السيارات حتى السهل الرملي الصحراوي الممتد وراء هذه المرتفعات. وبداية هذا السهل الصحراوي عبارة عن حزام واسع من هضاب رملية صغيرة الحجم تشبه فقاقيع صابون في حوض غسيل مملوء بالماء، وعلى بعد أربعة أميال من الشحير، مهبط أراض تم تنظيفه من الحجارة ووضعت حجارة بيضاء في أركانه الأربعة مع دائرة بيضاء في المركز. هذا السهل هو مطار المكلا السابق. أما المهبط الحالي فقد تحوّل إلى منطقة قوة الواقعة على الساحل غربي العاصمة. ويبدو أن السلطات المعنية قررت الاحتفاظ بمهبط الشحير للاستخدام في حالات الطوارئ.

يمتد هذا السهل الحجري لمسافة خمسة أميال أخرى على طول الضفة اليسرى لوادي فليك، ويوجد فوق الوادي الذي تجري مياهه طوال العام جسر متين للعبور. وبعد مسيرة ميلين آخرين يقابلنا وادي البويش والذي تصب مياهه في البحر. وتتجمع مياه الوادي أسفل الطريق وتكوّن بركة تظل محتفظة بمياهها طوال السنة، أما على خط الطريق المباشر فإن مياه البركة تجف، عدا أوقات السيول والأمطار. وتتنوّع المشاكل التي تواجه السائقين في هذه المنطقة، وفقاً للأحوال الجوية السائدة، ففي

موسم الأمطار مثلاً تكون العقبة الكؤود هي الوحل والطين، أما في مواسم الجفاف فيتمثل الخطر الرئيس في الرمال الكثيفة المتحركة. وخلال أسبوعين من الزمان واجهنا كلتا العقبتين ولم يكن أمامنا خيار يذكر عدا أن الطريق الرملي أنظف من الطريق الطيني. وتغطي أسفل الوادي غابة كثيفة من شجر الطرفة، بينما توجد على جانبيه مستوطنات كبيرة وهي تحديداً: مستوطنة ناجل بالضفة الشرقية، وبها بساتين نخيل كثيفة، ومستوطنة البويش بالضفة الغربية، وتكسوها هي الأخرى حقول وبساتين من النخيل وأشجار القطن، وتعطي في مجموعها منظراً بديعاً في غاية الروعة والجمال.

وبعد هذا الوادي تمتد الجبال على هيئة غطاء واسع ووعر من التلال السطحية، وتتجه إلى أسفل حتى حافة البحر. ويأخذ الطريق خطاً متعرجاً على هذه التلال (العتبات الجبلية). ثم عبرنا وادي ركب الذي يشق طريقه نحو البحر، واتبعنا مسار بطن شعيب سدق الضيّق والمتعرج حتى وصلنا ضواحي قرية المعوس، وهي قرية صغيرة وجميلة بها مجموعة من المنازل الريفية الضخمة، والتي يمتلكها بعض تجار المكلا. وهي وسط مجموعة من الصخور البركانية والتي تمثل المشارف الخلفية لمدينة المكلا، ثم مررنا بالعديد من ضواحي الميناء، مثل: يبرين، وبها قصر ريفي واحد وحدائق نخيل، وقرية البقَرين، والتي تحتوي على مصادر المياه التي تغذي مدينة المكلا عبر خط أنابيب. ثم وصلنا القصر الصيفي للسلطان في النقعة، وتحيط به حدائق جميلة فوق ربوة عالية، ثم أخيراً وصلنا إلى قرية الديس ثم قرية مروارا.

تخطينا قرية الديس ووصلنا وادي المعوس الذي يصب في مجرى وادي السغم العريض، وهو عبارة عن واد وخليج صغير، وتنتشر حوله برك واسعة من ماء مالح وشبه مالح. يميل الطريق في شبه دائرة عبر جسر صناعي بالناحية الشرقية للمدينة، وهذه المنطقة تعد المتنفس الطبيعي لسكان المدينة الذين يتقاطرون نحوها، راجلين أو بالسيارات عند الأصيل حيث يقضون بعض الوقت. وعندما مر ركبنا بالمنطقة شاهدت

العديد منهم. دخلنا المدينة قبل غروب الشمس بقليل، وفجأة توقفت السيارة بسبب سيارة أخرى كانت تسد الطريق أمامنا. لم أكن أتوقع هذا، ومع ذلك ترجلته من السيارة وكنت في حالة من التعب والإرهاق لا أحسد عليها أبداً. لقد كان حاكم المكلا داخل السيارة التي سدت علينا الطريق. وقمت بواجب التحية وكان الحاكم أكثر دهشة مني، وما كان يتوقع وجودي في هذا المكان وفي هذا الوقت بالتحديد. أعطى الحاكم تعليماته لسائق السيارة وأشار إليه بمواصلة السير، بينما بقيت أنا مع أصدقائي الجدد.

قال الحاكم: حسناً لقد استلمت من الساعي، قبل ساعة من الزمان، بريد شبام والذي يشير إلى مغادرتكم البلدة في طريق رحلة العودة إلى نجران، والآن ها أنت معنا هنا، كيف وصلت إلى هنا؟ على كلٍ مرحباً بقدومكم، ولكن لماذا لم تخطرنا حتى نكون مستعدين لاستقبالكم بما تستحقون من حفاوة وتكريم؟». سلمت الحاكم خطابات التعريف التي أحضرتها معي من شبام وتريم. ويبدو أن الحاكم لا يعرف القراءة، بدليل أنه سلم الخطابات المعنية لمرافقه والذي قرأ محتوياتها. -وكما ترى- بدأت أشرح الأمر للحاكم: «لقد غادرت شبام قبل أربعة أيام، وإن ساعيكم، الذي وصل اليوم، يكون قد استغرق ستة أيام في رحلته إذا كان قد بدأها يوم مغادرتي شبام للذهاب إلى هينن التي تقع في طريق عودتي». وحدثت الحاكم عن عمود السيارة ومغامراتي اللاحقة في الطريق. وعند غروب الشمس أدينا صلاة المغرب جماعة ثم جلسنا لفترة قصيرة نتجاذب أطراف الحديث، ولقد لاحظت أن الحاكم ومرافقه يرغبان في سماع أكثر ما يمكن من الأخبار قبل الآخرين. وقد سردت عليهما قصة الرحلة بالسيارة عبر الصحراء وكيف أنه من الممكن استخدام الطريق الجديد هذا لرحلة الحج. وعند حلول الظلام انحشر ثلاثتنا بالمقعد الخلفي للسيارة المفتوحة واتجهنا نحو المكلا وعبرنا البوابة الكبيرة وسرنا على طول ميدان الاستعراض المطل على الشاطئ البحري الطويل حتى وصلنا منزلاً كبيراً في وسط السوق.

حاكم المكلا الحالي هو أحمد بن ناصر البطاطي، وهو رجل رشيق ونشيط وفي خريف عمره. وهو دائم المرح ومتحدث من الطراز الأول. وكما يوحي اسمه فهو سليل بيت حاكم منذ قديم الزمان. كان الحاكم يرتدي الزي التقليدي المكون من إزار وجاكيت مع عمامة خفيفة. وهذا الزي يعطيه مظهراً مبهجاً، تعززه ملامحه الدقيقة وعفويته. ولقد عرفت ولمست الكثير عن هذا الحاكم أثناء إقامتي بالمكلا وإنني مدين له بالكثير، أقله اهتمامه الشخصي وكرمه الفياض. وبما أنني وصلت البلدة بدون سابق إنذار كاف، فقد قضيت الليلة ضيفاً على الرجل الذي كان بجانب السلطان عند الجسر، والذي قرأ له خطابات تعريفي التي أحضرتها معي، كما سبق أن أشرت إلى ذلك قبل قليل. هذا الرجل اسمه السيد سالم بن أبي بكر بن حسين، من قبيلة مضر بوادي دوعن.

إن سالماً وأخاه الأصغر حسينًا هما أصغر أفراد الأسرة التي يتزعمها حالياً شقيقهم الأكبر حامد، الذي أصبح مرافقاً دائماً للسلطان في أسفاره، وسوف يتم تعيينه كما سمعنا وزيراً عما قريب. وهذه الوظيفة كان يشغلها من قبل جده ووالده على التوالي، وتعد هذه الوظيفة من الناحية العملية منحة وراثية للمضريين. أما الشيخ حامد الأخ الأكبر والذي قابلته بعد ذلك بفترة وجيزة، فهو رجل هادئ ورزين وسريع البديهة. ومن الواضح أنه صاحب كفاءة عالية، ولديه بالتأكيد طموحات كبيرة. أما شقيقاه فإنهما يختلفان عنه في كل شيء تقريباً، في الذكاء وفي بنية الجسم، وفي خفة الروح والمرح وسرعة البديهة. كما أنهما متجهما الوجه دائماً، إلا أن ترمهما الفيّاض يغطي كل هذه العيوب والمآخذ.

تقع غرفة الاستقبال الرئيسة لمنزل الأخوين المذكورين -والذي دخلته الآن- بالطابق الأول في مواجهة نافورة معطلة كانت تزين الميدان أو الدوار الذي تتقاطع فيه طرق السوق الرئيسة. تؤدي إحدى هذه الطرق إلى الميناء ومكاتب الجمارك وأخيراً إلى أقدم أحياء المدينة القائم على ربوة عالية. وتنتشر حول الدوار مقاهي المدينة بطاولاتها

الصغيرة المستديرة وكراسيها، ويبدو أن أصحاب هذه المقاهي لا يتقيدون بالأوامر المحلية التي تنظم الطرق، بدليل وضع الطاولات والكراسي داخل حدود الطريق، ضاربين بحرمة هذه الأماكن عرض الحائط. أما سائقي محمد باخشيم وهو من مواطني وادي دوعن بالميلاد، فقد وجد أصدقاءه وأقرباءه وأبناء جلدته ولم أملك إلا أن أبتسم للتناقض الواضح بينه وبين رفاقه، فهو بلباس أهل مكة الكامل وهم بشعرهم المجعد وأجسامهم العارية التي تلمع كما النحاس المصقول، ولا يستر أجسامهم غير قطعة قماش حول الخصر والحزام الذي لا فكاك منه.

امتلأت غرفة استقبال سالم حتى فاضت بالزائرين، ودارت أقداح القهوة والشاي، بينما واصل المدخنون تدخينهم بمزاج شديد. كنت جالساً بين أحمد بن ناصر وسيّد آخر عرفت فيما بعد أنه قاضي المكلا، وهو الشيخ محمد باجنيد من وادي دوعن. وبدعوة منه دخلنا -هو وأنا- في مناقشة ساخنة. ومن الواضح تماماً أن الرجل كان منزعجاً من احتمال ضم حضرموت إلى الأراضي التابعة لنفوذ ابن سعود وحاولت طمأنته بعدم النية في الإقدام على هذا الأمر، غير أنني أوضحت له بجلاء تام عدم قبولي بأن حضرموت مخلاف (مقاطعة) تتبع لليمن. واقترحت أنه إذا حصرنا المناقشة في السياق التاريخي وحده يمكن أن تقودنا إلى القول بأن فلسطين يهودية[1] وإسبانيا عربية. ومن المؤكد أن المستمعين كانوا يؤيدون وجهة نظري بأن حضرموت دولة مستقلة الآن. وهي لا تنتمي إلى اليمن أو السعودية. وهاجمني القاضي ووصفني بأنني «رجل هزيل وجائع» يبحث عن شكوى ومظلمة، لكنه تخلى عن عداوته قبل قليل من مغادرته المجلس. وقد تقابلنا -القاضي وأنا- مرات أخرى في مناسبات عديدة وكان ودوداً معي، غير أنه لم يزرني في مكان إقامتي كما وعد.

(١) الأدلة التاريخية لا تؤيد ما ذهب إليه فيلبي بأن السياق التاريخي يقود إلى أن فلسطين يهودية. (المراجعون).

انحصر النقاش بعد ذلك حول الموضوع الذي ظل يفرض نفسه في كل جلسة وهو طريق السيارات الجديد، والذي يعني الكثير جداً لمدينة المكلا، التي لديها مصالح كثيرة فيما يتعلق بموضوع الحج عن طريق البحر. وربما تكون فكرة استخدام حجاج وادي حضرموت الطريق البري الجديد غير مقبولة للعديد من الذين استمعوا إلى ما قلت، وكان بين الحضور رجل في منتصف العمر، ومن الواضح أنه تعرض لتجربة مريرة أثناء رحلته إلى مكة، لهذا كان أكثر الحاضرين صراحة في التعبير عن قناعته الشخصية بأن لا أحد من الحجاج الحضارمة على استعداد لاستعمال طريق السيارات البري، حتى ولو كان أقل تكلفة مالية من الطريق البحري الحالي. إن التقديرات العامة لتكلفة الرحلة البحرية من حضرموت إلى مكة وبالعكس تبلغ حوالي ٣٠٠ ريال (٢٢ جنيهاً إسترلينياً تقريباً) لكل حاج. وتستغرق رحلة الذهاب والإياب حوالي أسبوعين أو أكثر، أما الرحلة بالسيارة، إن كانت جيّدة التنظيم والتحضير، فإنها بالقصع سوف تحسن التدابير الحالية فيما يتعلق بالزمن والإنفاق المالي.

بدأ الحضور في مغادرة المجلس تدريجياً وكانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن الساعة قد بلغت العاشرة، وأنه قد نودي لصلاة العشاء. وضع محمد سريري على المصعبة المكشوفة لغرفة الاستقبال، وقد سعدت كثيراً كوني أويت إلى فراشي مبكراً. ومراعاة للتقاليد العربية الأصيلة، جاء سالم لينام مع ضيفه في غرفة الاستقبال تاركاً وراءه زوجته. ودغدغني صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ الصخري ورحت في سبات عميق. كانت ليلة باردة والسماء ملبّدة بالغيوم، ولم يكن الجو رطباً ولا يوجد بعوض.

تختلف المكلا كثيراً عن جدة، والتي تكون في مثل هذا الوقت (٢٩ أغسطس) في أسوأ حالاتها: شديدة الحر، عالية الرطوبة، إضافة إلى الناموس. أما هنا في مدينة المكلا فإننا في نهاية موسم الرياح الموسمية التي تبدأ عادة في شهر يونيو من كل عام. تبلغ أدنى درجات الحرارة في هذه الأيام (٨٢) درجة، ومع ذلك، ففي أحد الأيام، ومع هبوب السموم الحارقة سجل ميزان الحرارة الذي أحمله معي (٩١) درجة

لمدة ساعة أو ساعتين، وقد يكون من الصعب جداً تخيل ظروف مناخية أكثر لطافة من هذه! لقد جرت العادة على أن تتجنب السفن الكبيرة ميناء المكلا أثناء فترة الرياح الموسمية التي تستمر ثلاثة أشهر، لكن أثناء إقامتي هنا لاحظت سفينتين كبيرتين راسيتين في الميناء، واحدة متجهة نحو الشرق، والأخرى نحو الغرب، وهذا، في حد ذاته مؤشر بنهاية موسم الأحوال الجوية السيئة.

استيقظت من النوم عند الخامسة صباحاً، لأداء صلاة الفجر، ومع ذلك لم أستطع مقاومة رغبة العودة إلى السرير لإغفاءة أخرى امتدت حوالي الساعة، استعداداً لمقابلة الزوار. وقد كانت وجبة الإفطار ممتازة وتتكون من دجاج وأرز وخبز، إضافة إلى عسل دوعن المشهور. وأحسب أنني كنت بحاجة إلى هذه الوجبة الدسمة استعداداً ليوم طويل وحافل. كان أول الزائرين هو أحمد بن ناصر، وبعده توافد الزوار من كل صوب وحدب، مثل مياه النهر المتواصلة الجريان. وفي أغلب الأحوال كان يتواجد بالغرفة ما بين عشرين إلى ثلاثين شخصاً، ولا يقل العدد عن اثني عشر رجلاً على الإطلاق. وأحسب أنه لا يوجد أحسن من هذا الوضع، أي أن أكون جالساً بجانب النافذة أتجاذب أطراف الحديث مع زواري المتعطشين لمعرفة أخباري وقراءة أفكاري، بينما أسترق النظر من وقت لآخر إلى السوق المزدحم والمكتظ بالمتسوقين أسفل النافذة. اغتنم مضيفي فرصة مغادرة الزوار وأرسل إلى أحد الحلاقين للعناية بشعر رأسي ولحيتي. كان الحلاق أفغانياً وقد ظل يزاول هذه المهنة في البحرين منذ عدة سنوات لكنه هرب منها إلى المكلا أثناء فترة حكم الميجور دالي. وبينما كان الحلاق يقص شعري الكثيف بمقص كبير، ظل يسليني بقصص تلك الأيام الصعبة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ذهبت إلى محطة اللاسلكي الموجودة في إحدى زوايا الفناء الواسع لقصر السلطان المطلّ على البحر. ولما كان اليوم يوم

أحد، فقد فشل عامل التلغراف لمدة ساعتين في إيقاظ زميله بمدينة عدن المستمتع بنوم عميق في إجازة نهاية الأسبوع، ولهذا ظلت رسالتي في مكانها ولم تغادره إلا في اليوم التالي. عدت إلى منزل سالم لتناول طعام الغداء، وبعدها نمت حتى مغيب الشمس وبعد ذلك اصطحبني أحمد بن ناصر وسالم في رحلة قصيرة بالسيارة إلى القصر الصيفي للسلطان في النقعة، وفي الطريق إلى القصر شقت السيارة طريقها أعلى جبل مرتفع ودارت حوله بسرعة بدت وكأنها محفوفة بالمخاطر، إلا أننا وصلنا سالمين إلى حديقة القصر. ويا لها من حديقة رائعة! حيث نباتات الزينة تنمو بكثافة وغزارة، إضافة إلى أشجار القطن المزهرة وأشجار السنط والباباي والموز والجوافة، إضافة إلى تعريشة رائعة من الكرم يحيط بها حوض مربع يغذيه جدول تتدفق فيه المياه العذبة لسقاية هذه الجنة الوافرة. أُحضرت السجاجيد والأبسطة من داخل المنزل وفُرشت فوق منصة بجانب الحوض، وجلسنا هناك نتجاذب أطراف الحديث بينما كان الخدم يقدمون أكواب الشاي والقهوة والفواكه. وفي طريق عودتنا للمدينة عبرت السيارة حديقة وساحة كبيرة، تحيط بها -من جوانبها الثلاثة- مبان فخمة. أما القصر المركزي والذي كان يقيم فيه السلطان الراحل عمر، فقد وُضع تحت تصرفي الكامل طيلة بقية فترة إقامتي بالمكلا.

لقد أتاحت لي الإقامة في هذا القصر المزيد من الحرية والخصوصية الشخصية، بالمقارنة مع ما كان متاحاً في وسط المدينة. لا يبعد القصر كثيراً عن المدينة، ولهذا فإن الزوار الذين يرغبون في زيارتي كانوا يحضرون بدون مشقة أو عناء، ومع ذلك فإنه يبعد بعيداً عن مراكز النشاط الرئيسة الأخرى مما لم يُتح للمشاركين في هذه الأنشطة زيارة القصر أثناء فترات الاستراحة التي لا تزيد عن نصف ساعة، على أحسن الفروض. وعلى كل حال فقد كان مجلسي عامراً أغلب فترات الصباح وما بعد الظهر، وكان أحمد بن سعيد يزورني يومياً للاطمئنان علي، وكان يصحبني في

بعض الأحيان في سيارته. وكان يقوم بخدمتي والسهر على راحتي أحد خدم السلطان الأوفياء، وهو عجوز وقوي ونشط ومنضبط للغاية واسمه عبد القادر، وكان قد خدم ما لا يقل عن أربعة سلاطين متتالين. لقد وُلد عبد القادر في خدمة السلطان عوض بحيدر آباد لوالدين تمتد جذورهما إلى شبام، وهو حالياً الحارس المؤتمن لجميع القصور القديمة التي ينزل بها ضيوف السلطان.

كانت وجبات طعامي تجلب من المطبخ الأميري (السلطاني) مرتين في اليوم، والأسلوب المتبع في الطبخ هو النمط الهندي. وتتكون كل وجبة من الكعري والمخلّلات التي تطبخ بطرق وأشكال متعددة. كان مجلسي المفضل أثناء ساعات النهار بالطابق الأول، وهو مكوّن من عدة غرف واسعة. وكنت أستقبل ضيوفي في هذه الغرف. أما بعد مغيب الشمس فإنني أصعد إلى الطابق العلوي المكوّن من عدة غرف صغيرة المساحة، كنت آوي إليها عند هطول الأمطار. كما توجد أيضاً حمامات، ويتوفر كميات من الأسرّة والكراسي والمناضد عند الضرورة، غير أنني كنت أفضل افتراش الأرض للنوم وعند تناول الطعام.

يطل سطح المنزل الذي أقيم فيه على أحد المناظر الخلاّبة لمدينة المكلا، ولقد تم بناء القصور القديمة الثلاثة بالقرب من بعضها على فناء رحب بالقرب من السور الغربي للمدينة، وإذا اتجهت بنظري نحو البحر، فإن القصر الذي يقع على يميني يلامس السور الغربي، وكان السلطان غالب يقيم في هذا القصر، وذلك قبل أن يأمر ببناء القصر الآخر الواقع على ساحل البحر. ويقع في الجهة المواجهة لقصر غالب، القصر الذي كان يقيم فيه والده عوض، وهذا القصر يبدو في حالة متردية، مع أنني لاحظت حركة دائبة لترميمه وإصلاحه. وبين هذين القصرين، وعلى الناحية الشمالية للميدان، يوجد قصر عمر، وهو القصر الذي أقيم فيه حالياً. أما جانب الميدان المواجه للبحر فتوجد فيه حديقة رائعة الجمال تتكون من أشجار جوز الهند وأشجار

أخرى باسقة. وقد ألقيت نظرة من أعلى هذه الحديقة على قصر السلطان، والحديقة والميدان والتي تشغل كل الحيز الممتد بين الشارع الرئيس والبحر من الناحية الغربية للمدينة. ويكوّن القصر وملحقاته منظراً جذاباً من المباني بسيطة التصميم. وأجمل هذه القصور بدون منازع، هو القصر الحالي للسلطان، الذي تمّ تشييده منذ ثلاثين سنة، "في مواجهة زبد البحار المحفوفة بالمخاطر". أما أمواج البحر فإنها تتكسر دائماً على حيطان القصر الصخرية وترسل رذاذاً عالياً ليرتطم على واجهات النوافذ، بينما تعصف الرياح عبر دهاليز وممرات القصر. ويقع أقدم قصور مدينة المكلا -والذي كان يقيم به السلطان عوض أول سلطان قعيطي- في الجزء القديم من المدينة فوق قمة الجبل بجانب المرفأ. ومن الواضح أن فترة بنائه سبقت بكثير بناء القصور الأخرى. لقد شيّد هذا القصر ليكون سكناً للسلطان وقصراً للحكم وإدارة شؤون الرعية، وتبدو عليه سيماء الفخامة والأبهة، غير أنه بحاجة ماسة إلى الترميم والإصلاح. لقد سبق أن أشرت إلى قصر السلطان الصيفي في النقعة، وهناك قصر صيفي آخر على بعد ميل أو ميلين من الجهة الشرقية للمدينة تحت القمة التي تتخللها سلسلة جبال القارة، ذات المناظر الطبيعية الخلاّبة، والتي تمتد حتى حافة البحر. وهناك قرية مهجورة اسمها خلف تقع على طريق الساحل في منتصف المسافة بين القصر والمدينة.

كان الليل عاصفاً بعض الشيء، وقد نزلت زخات متقطعة من المطر، لدرجة أنني فكرت أن أدخل إلى غرفتي، غير أنني بقيت بالسطح حتى بزوغ الفجر، ولم يكدر صفو البحر إلا مويجات صغيرات ترتطم باسترخاء شديد على الساحل. وما إن ارتديت ملابسي وتناولت طعام الإفطار، حتى أعلن عن حضور بعض الضيوف وكان بينهم صالح بن محمد بن صالح، وهو ابن أخ علي بن صالح من شبام، مع إن الاثنين في نفس السن تقريباً. وكان والده -الأكبر من علي بحوالي عشر سنوات- سلطاناً في شبام حتى وفاته بمكة أثناء موسم حج ١٩٣٢م. وقد خلف علي شقيقه في

الحكم. ويبدو أن هذا الأمر لم يعجب صالحاً، وحقيقة الأمر أن الأخير لا يخفي كراهيته وحقده على عمه، ولهذا السبب اختار السكنى في قصر السلطان عمر منذ وفاة والده. وقد قام صالح قبل حوالي ستة أو سبعة أشهر من زيارتي هذه، برحلة إلى حيدر آباد، حيث كان السلطان عمر راقداً على فراش الموت. وبعد وفاة السلطان عمر اصطحب صالح السلطان الجديد -واسمه هو الآخر صالح- إلى المكلا. كان صالح ممتلئ الجسم ويوحي مظهره بالحزن والغضب، وكان يفتقر إلى أي من مزايا عمه الجميلة. ولم أشجعه على الحديث المكرر والممل عن مرارته الشخصية تجاه عمه؛ أما رفيقه السيد محمد بن عبدالله الحبشي، فقد كان يشغل وظيفة صغيرة ضمن سكرتارية السلطان، وكان يعيش معظم عمره في مدينة أديس أبابا، إلا أنه غادر الحبشة خوفاً من الغزو الإيطالي. وقد علمت أنه كان يشتغل بالتجارة أثناء إقامته هناك.

وبعد مغادرة هؤلاء الزوار، وصل أحمد بن ناصر وكان في حالة هياج وعجلة شديدة من أمره، وخاطبني قائلاً: «هيا استعد لقد وصل السلطان»، وكان المرئب واسمه (الحق)، والذي يزور ميناء جدة من وقت لآخر، يقترب من المرفأ. لم أستغرق كثيراً من الوقت في الاستعداد لرحلة المرفأ، وانطلقت بنا السيارة في سرعة رهيبة وسط أكوام البشر المنتشرة بالسوق، وشكراً لبوق السيارة العالي الذي أزاح هذه الكتل البشرية عن طريق السيارة المسرعة. ولا أبالغ إن قلت إنني أمقت هذا النوع من التور في القيادة، وهو أمر شائع اشتهر أهله باللطف والاحترام! وإذا كان الإغريق يكرهون أبناءهم الرياضيين فإن لسكان الجزيرة العربية من الأسباب ما يدفعهم للعنة سرعة وتسابق سائقي السيارات.

على العموم وصلنا إلى بوابة الجمارك وواصلنا سيرنا نحو المرفأ ووجدنا أمامنا حشداً من البشر حضروا لتحية واستقبال سلطانهم العائد من أسفاره الخارجية، وكان الجيش المحلي يقف في تشكيلة عسكرية تمثل ثلاثة أضلاع مربع أمام الباخرة. وكان عدد الجنود المشتركين في هذا الاستعراض العسكري حوالي ثلاث مئة وأربعين جندياً.

نصفهم من قبائل يافع وهم من عشيرة السلطان نفسها، وقد تم تدريبهم على يد العقيد ليك ومجموعة أخرى من الضباط الإنجليز بمحمية عدن أو الفرقة اليمنية والتي تم تسريحها. كان الجنود يرتدون قمصاناً وأردية من الكاكي، ومن الواضح أنهم نالوا تدريباً مكثفاً على فهم واستيعاب معاني الأوامر التي يصدرها لهم ضباطهم الإنجليز باللغة الإنجليزية. أما النصف الآخر من القوة العسكرية الاستعراضية فهم خدم السلطان بملابسهم الحمراء والزرقاء وشعرهم المضفر والمتوهج، وهناك فرقة إسناد أخرى مكوّنة من الطلاب العسكريين تحت التدريب وكلهم من طبقة العبيد، غير أنهم كانوا يرتدون قمصاناً وأردية من الكاكي مثل لباس الجنود من قبيلة يافع. ويكتمل الاستعراض العسكري بفرقة الموسيقى التي أتيح لنا سماع ألحانها مراراً وتكراراً أثناء إجراء تمارينهم وتدريباتهم في ساحات القصور القديمة.

وبعد قليل من وصولنا، وصل القارب السلطاني وعليه عبيد أقوياء يرتدون زيّاً موحداً ويجدِّفون بقوة ومهارة. وكانت أمواج البحر عالية إلا أنهم قهروها بقوتهم وخبرتهم الطويلة. نزل السلطان من المركب وكان أحمد بن ناصر أول المستقبلين، وبعد ذلك تقدمت أنا للسلام. كانت ملامح وجه السلطان محايدة تماماً، فلم تُظهر استغرابًا أو فرحًا أو عدم رضا. أُمرت الجماهير المحتشدة بإفساح الطريق للسلطان وابنه عوض الذي يبلغ عمره ستة عشر عاماً. سار الموكب السلطاني إلى ميدان الاستعراض الذي يطوقه الجنود وعزفت الفرقة الموسيقية لحن «ليحفظ الله الملك»، ووقف سموه الكريم لتلقي التحية العسكرية، ثم أطلقت المدفعية نيرانها تحية للسلطان بينما استقل السلطان وابنه، يصحبهم أحمد بن ناصر، السيارة الملكية التي انطلقت بهم نحو القصر. وقد عرض عليَّ صالح بن حزيق، الذي زارني صباح اليوم بمقر إقامتي، أن يصطحبني معه في سيارته إلى القصر. نزلت من السيارة عند البوابة ومشيت راجلاً إلى غرفتي وقد أخبرت صالحًا بأنني لن أتمكن من زيارة السلطان إلا بأمره، ولهذا بقيت بالغرفة وحدي أستمع إلى الجنود العائدين إلى ثكناتهم بعد انتهاء الاستعراض العسكري، وهم يعزفون

ألحاناً عسكرية جميلة. والجدير بالذكر أن الاستعراض العسكري كان ناجحاً بكل المقاييس، ومع ذلك ما زلت أسأل نفسي عما إذا كان مفهوم مواطني المكلا للحضارة والتقدم هو المفهوم الصحيح والمناسب لدولة عربية.

وبينما كنت أتأمل وأفكر في مثل هذه القضايا والمشاكل دخل عليّ مبعوث السلطان يطلب مقابلتي بالقصر، وقد استقبلني السلطان بحفاوة، وبالرغم من تمنعي واحتجاجي أصر عليّ أن أشاركه الجلوس على عرشه، وهو عبارة عن أريكة كبيرة ومريحة. وكان في مجلس السلطان بعض من مرافقيه في رحلة الباخرة (الحق)، وهم تحديداً: الإخوان الثلاثة من عائلة آل الكاف، وأربعة من أعضاء البعثة العلمية المصرية، والتي قضت بضعة أشهر في اليمن، وهي الآن في رحلة قصيرة إلى وادي حضرموت. وبعد أن سلمت على الجميع بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وتطرقنا إلى شبوة والطريق البري بالسيارات، وقد كان مجلساً عامراً. انفض سامرنا وتركنا سموه لمقابلة أفراد أسرته، وفي تمام الساعة الخامسة مساء دُعيت لتناول الشاي بالقصر، وهي مناسبة لتبادل الأحاديث الخصوصية، وفي حقيقة الأمر فإن السلطان لا يتحدث كثيراً ولا يخلو من انعدام الشفافية والعاطفة والحميمية، ومع ذلك فقد كان انطباعي عنه أنه ودود وحريص على القيام بواجباته تجاه رعاياه، وكان شغوفاً لسماع أخبار ابن سعود وما يجري داخل الجزيرة العربية. أما من جانبه فليس للسلطان الكثير ليقوله عن أسفاره، كما أنه لم يتطرق أبداً خلال المناسبات التي جمعتنا سوياً إلى مناقشة أي موضوع حساس أو شائك، ذلك أنه مدرك تماماً لموقف سلطات عدن تجاهي، ولكنه لم يشر أبداً إلى أنه يعرف هذا الأمر، وفي حقيقة الأمر فإن الوضع غير مستقر وغير مريح مع اعتبار عدن المجاور. لقد اعتلى الرجل العرش بعد أن تقدمت به السن، وكان يحمل معه كل أوجه القصور التقليدية لتجارب السيادة الهندية ومع ذلك فقد أدهشني كإنسان يفضل عناء التفكير لنفسه بالرغم من حذره في التعبير شفاهة عن

أفكاره. ولقد واجه منذ البداية مشكلة لم تواجه السلاطين الذين سبقوه، ولا يملك المرء إلا أن يتمنى له كل خير فيما هو قادم عليه، وأن يتمكن من أن يؤدي دوره في المحافظة على استقلال بلاده في مواجهة الضغوط المتواصلة لعالم أصبح بحق وحقيقة عالماً مجنوناً.

لقد حدثني أحد موظفي السلطان بصراحة شديدة بأن عرب حضرموت ليسوا مؤهلين للاستقلال ولا يرغبون حتى فيه، وهم راضون وقانعون باعتمادهم على الحماية البريطانية، إضافة إلى أنهم سيكونون أكثر سعادة لتعاون ابن سعود إذا تمكن الأخير من تبرير الأمر بحصافة ولباقة مع البريطانيين. ثم واصل محدثي قوله بأن هناك انطباعًا عامًا بأن سادة آل الكاف يعادون ابن سعود إلاّ أن هذا الانطباع بعيد جداً عن الواقع، ذلك أن عرب حضرموت، من بين جميع الشعوب، سيكسبون كثيراً من تدخل ابن سعود لإحلال السلام والأمن بدلاً عن الفوضى وعدم الاستقرار، ومن هذا المنطلق فلا توجد عداوة بين الفريقين. والاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الملاحظات العامة واضح تماماً: أنهم -أي عرب حضرموت- يدركون تماماً أن ابن سعود قد فرض السلام والأمن على المملكة العربية السعودية وهم يرغبون في إحلال هذا السلام على ربوع بلادهم، وأن الحماية البريطانية لم تتمكن في الماضي ولن تستطيع مستقبلاً معالجة المشاكل الناتجة عن الفوضى وعدم استتباب الحكم. كما قد سألني موظف يحتل وظيفة مرموقة بصراحة تامة ما إذا كان في مقدور ابن سعود إرسال كتيبة أو تجريدة صغيرة من الجنود السعوديين في حدود مئتي رجل لفرض الأمن والسلام في حضرموت، وواصل المسؤول الكبير قوله بأن حكومة السلطان سوف تتحمل جميع نفقات هذه الكتيبة. أجبت الرجل قائلاً: «نعم لكن ماذا سيكون موقف أصدقائكم في عدن حيال هذا الأمر؟». ضحك الرجل؛ وكلانا يدرك الصعوبات التي تحول دون تحقيق هذا الرجاء. إن الحكومة البريطانية لا تستطيع بسط الأمن والسلام

في ربوع حضرموت، أما ابن سعود فهو الوحيد القادر على ذلك بدون أي شك. هل يقوم البريطانيون بدعوة ابن سعود ليؤدي هذا الدور؟ أبداً!.

وفي طريق عودتي إلى مقر إقامتي بعد حفل الشاي الذي دعاني له السلطان قمت بزيارة مفيدة إلى الإخوان آل الكاف والبعثة المصرية، وكانوا يقيمون في قصر غالب، ولما كانت فترة إقامتهم بالمكلا قصيرة جداً فقد كان لي شرف مقابلتهم جميعاً مرة أخرى في تريم. لقد قام المصريون بزيارة عدد من المواقع الأثرية الهامة في اليمن مثل: ناعط، وعُمْران، وحَجَّة، وخَرِيد، غير أن صاحب الجلالة الإمام قد وضع بعض العقبات أمام زيارتهم المقررة إلى مأرب والجوف، بحجة عدم الاستقرار والأمن السائدين في تلك المناطق. لقد أذن ابن سعود للبعثة المصرية بزيارة نجران وعندما كنت هناك خلال شهر يوليو كان الحاكم يتوقع وصولهم في أية لحظة، ويبدو -مع ذلك- أن الإمام لا يرغب في تقديم التسهيلات اللازمة والضرورية للرحلة عبر تخومهم الشمالية، ولهذا لم تتمكن البعثة المصرية من زيارة نجران مما أضاع فرصة نادرة لوضع خريطة للمنطقة الجنوبية والتي لم يسبق أن وضعت لها خريطة من قبل. وبعد إجراء ما هو ممكن ضمن الحدود والتخوم التي تمكنوا من زيارتها، واصل أعضاء البعثة رحلتهم إلى عدن وقابلوا السلطان وسادة آل الكاف الذين أقنعوهم بالقيام بزيارة ولو قصيرة إلى بلادهم. كانت البعثة العلمية المصرية تتكون من: رئيس البعثة، سليمان حزين (علم الأجناس، الآثار والجغرافيا)؛ م. توفيق (علم النبات وعلم الحشرات)؛ ن. شكري (الجيولوجيا)، إضافة إلى خليل نامي (دراسة النقوش)، وكانت هذه أكبر بعثة علمية تزور الجزيرة العربية منذ رحلة كارستين نيبور في القرن الثامن عشر؛ وسيكون الجميع في انتظار تقرير هذه البعثة، خاصة وأن السيد حزيناً قادر على القيام بعمل مقدر في مجال فرع الإنثروبولوجيا الذي يبحث في قياس الجسم البشري. وبهذه المناسبة فقد أخبرنا في اليمن كما أُخبر من قبلنا الدكتور رائيانز عالم الآثار

الألماني، بأن الخرتيت يعيش في بلاد أرحب، وقد أكدّ للدكتور راثيانز أيضاً بأن الزراف يعيش في المنطقة نفسها. وكلتا الروايتين مشكوك في صحتها ولا يوجد في واقع الأمر مصدر إثبات موثوق يكون قد رأى بعينيه أياً من هذه الحيوانات في أي موقع في الجزيرة العربية.

إن الحياة في المكلا ليست مثيرة وهي تختلف قليلاً (عدا في المناخ) عن الموانئ الأخرى الواقعة على البحر الأحمر والخليج العربي، فيما عدا أن سكان المنطقة ما والوا متمسكين بتقاليد ونمط حياة أهل الشرق، فلا توجد بالمكلا مسارح أو دور سينما، ولم يهتم أحد من المسؤولين بإيجاد أماكن لهو وترفيه لجماهير المدينة، عدا الفرقة الموسيقية التابعة للسلطان. وفي حقيقة الأمر فإن السكون التام يخيم على المدينة وأهلها بعد مغيب الشمس.

ولقد اعتاد الجميع الخروج من منازلهم عند الأصيل، فرادى أو جماعات، راجلين أو بالسيارات للترفيه عن أنفسهم. يفصل مجرى سغم بين المكلا وضاحية شاري التي تتميز بمنازلها الكئيبة والموحشة والمصنوعة من القش أو أغصان الشجر. ومع ذلك يوجد القليل من البنايات الكبيرة، إضافة إلى المسجد، وهذه تعد مباني حديثة بالمقارنة مع المباني الأخرى. لقد أقيمت هذه الضاحية فوق منطقة مرتفعة بعض الشيء تبعد حوالي ميل عن البحر، ويقف من خلفها حزام كثيف من كثبان الرمال البيضاء كما الثلج، وتفصل هذه الكثبان الرملية الضاحية من الصخور السوداء للسلسلة الساحلية. أما السهل الرملي الذي يقع أمام الضاحية فقد تمّ تخصيصه كمحطة أو موقف للقوافل. ولهذا تجدها دائما مكتظة بالجمال والحمير والبشر في حركتهم الدائبة بين المدينة ومناطقهم الريفية. وتفوح روائح السمك المجفف وروث الجمال من هذه المنطقة، بينما يلعب شباب المدينة كرة القدم في معظم فترات ما بعد الظهر على طول شاطئ وادي سغم حسب لوائح الاتحاد. ويوفر الشاطئ الممتد جهة

الغرب حيث تتلاطم أمواج البحر بهدوء وتؤدة على خط الماء البلوري، وتتسارع القشريات المائية في طريقها نحو جحورها عند سماع خطوات المارة والمتسكعين على الشاطئ، ويوفر هذا الشاطئ البلوري الجميل مجالاً رحباً للترفيه عن النفس وتزجية الفراغ، ولا يعكر صفو المكان إلا أصوات السيارات المسرعة المتجهة نحو منطقة فوه، حيث يوجد المطار الجديد. وتوجد أيضاً صخور مسطحة تمتد على طول الشاطئ، نصفها مغمور في الماء ويتخللها العديد من البرك الضحلة. وفي هذا المكان -تحديداً- تتجمع نساء ضاحية شاري، وبعض البدويات الأخريات لأجل الاستحمام والنظافة والغسيل، وذلك بعد نهاية عمل يوم طويل استعداداً لصلاة المغرب والتي يؤدينها على ساحل البحر. وكن في أغلب الأحيان يستحممن بكامل ملابسهن وفي هذا فائدة مزدوجة: تنظيف الأجسام والملابس. وقد كنت أتمشى إلى مسافات بعيدة على طول هذا الساحل الهادئ الجميل ثم أعرج على كثبان الرمال البيضاء العالية، وأجلس هناك حتى المغيب متأملاً بعض الحيوانات المائية الصغيرة وهي تصعد المنحدرات المنزلقة، وترفع هذه الحيوانات رأسها من وقت لآخر مما يتسبب في دحرجتها مرة أخرى نحو القاع، إلا أنها تعاود الصعود بجد لا يكل وعزيمة لا تلين. تُرى ماذا تعمل هذه الحيوانات المائية الصغيرة فوق هذه القمم الرملية، عدا الاستمتاع بالهواء العليل؟! هذا سؤال لم أتمكن من الإجابة عنه أبداً، ومع ذلك فإن الرحلات الاستكشافية لهذه الحيوانات الصغيرة تترك وراءها لوحات سريالية فوق الرمال. وكنت أسلي نفسي بخلع المحارة أو المأوى المتحرك لأي من هذه الحيوانات المائية ومراقبة محاولاتها المستميتة للعودة إلى دارها أو محارتها. وأية محارة بحجم ملائم يمكن أن تفي بالغرض على أكمل وجه، وتزداد المنافسة حدة وتشويقاً إذا تركت محارة واحدة لاثنين من الحيوانات منزوعة المحارة!.

أقام السلطان -مساء اليوم الثاني لعودته من الخارج- حفل عشاء بالقصر حضره جمع غفير من كبار موظفيه، إضافة إلى سادة آل الكاف وأعضاء البعثة العلمية

المصرية وكاتب هـذه السطور. كان الحفل عبارة عن مناسبة اجتماعية غير رسمية، وكان الطعام رائعاً، وقد تم تقديمه بالطريقة الأوروبية، وكان الحديث فاتراً بعض الشيء احتراماً ومراعاة لصمت السلطان وميله الطبيعي للسكوت وقوبلت محاولاتي المتكررة لجذب ابنه عوض للحديث والحوار بردود فعل لا تتجاوز الكلمة الواحدة، مما يعني -بطريقة أو بأخرى- عدم رغبة الابن -كوالده تماماً- في الحديث والثرثرة. وفي اليوم التالي غادرت البعثة المصرية المكلا في طريقها إلى تريم، وكان في صحبتهم سادة آل الكاف. وقد تركت وحيداً.

ذهبت ذات ليلة لجلسة استماع إلى الراديو في منزل يوسف شريف، الوكيل المحلي لشركة بيسي، كما قمت أيضاً بزيارة أو زيارتين لمنزل المحضار الذي كان دائم الحركة والنشاط بعودة السيد حامد، وأعترف أن الحياة الاجتماعية في المكلا لا تخلو من الفتور والركود، كما لو أن أي شخص يخاف أن يسمعه وهو يقول شيئاً مفيداً يستحق أن يُسمع. ولا شك في أن موقف عدن خلق قناعة لدى الجميع بأن الصمت أكثر أماناً من الحديث. وفي الحقيقة ليست لديّ أية رغبة لإطالة إقامتي في المكلا، إلا أنني مضطر لانتظار المركب القادم من عدن لاستلام قطع الغيار المطلوبة، وليس في مقدوري بالطبع استعجال قدوم المركب.

وقد كان لوصول الباخرة ذات المدخنة الزرقاء، واسمها بوليفيمس، القادمة من جزر الهند الغربية، دور في كسر الرتابة والوحدة التي انتابتني خلال الأيام القليلة الماضية، كما أنني كنت بحاجة ماسة إلى التبغ وبعض الضروريات الأخرى، لهذا انتهزت هذه الفرصة لقضاء الفترة الصباحية بالبحر فوق سطح المركب. كان القبطان الكبتن برويز، الذي امتدت سنوات خدمته في البحر إلى اثنتين وأربعين سنة، من المؤمنين بالروتين والتنظيم، وما لفت نظري حقيقة هو البرنامج الصارم الذي يطبقه الرجل على نفسه، والذي لا يتحمله إلا الأنبياء والمتدينون، فهو لا يدخن ولا يشرب الخمر، وقد حرّم على نفسه كل أنواع السلوك غير السوي، إضافة إلى أنه يتناول

وجبات طعامه في مواعيد محددة بدقة شديدة، كما أن مواعيد قيامه ونومه محددة. إضافة إلى التفتيش اليومي للسفينة. وفوق هذا وذاك يقتطع كابتن برونر ساعة كاملة من برنامجه اليومي لمزاولة هواية النجارة والتي أثمرت عن صنع أثاثات بديعة لمنزله في هولندا، كما أنه يقتطع ساعة كاملة أخرى في كتابة جزء من خطابه لزوجته العزيزة، ولا أشك مطلقاً في أن الرجل قد وصل لقناعة تامة بأنه وجد الإجابة الشافية للغز حياته. وأحسب أنه يمكن تقرير هذا الأمر بالنسبة للكابتن -غير أنه- وأنا في طريقي داخل المركب نحو الساحل أشعر بسعادة بالغة بأنني لم أتوصل إلى هذه الإجابة الشافية بعد.

وبخلاف الوضع في الشحر، فإن إدارة الجمارك في المكلا تديرها وكالة حكومية، وقيمة الرسوم الجمركية هنا ثابتة وتبلغ ٨٪ مع رسوم إضافية على السكر وبعض المنتجات الأخرى. وتبلغ رسوم التبغ ١٧ ريالاً على حمولة ٣٠٠ طن من التبغ، وتتفاوت القيمة وفقاً لأسعار السوق، ما بين ٥٠-١٠٠ ريال، ولم أتحقق من مجموع متحصلات الضرائب السنوية، غير أنه بالتأكيد يفوق ثلاث أو أربع مرات مقدار الربط السنوي لمدينة الشحر. ولا يختلف اثنان أن المصروفات المترتبة على جيش يتراوح بين أربع مئة وخمس مئة جندي تستنزف نسبة كبيرة من دخل الدولة، كما أن هناك التزامات مالية أخرى تصرف على المدارس المحلية والمستشفى، وفيما عدا هذه البنود فيبدو أن القائمة المدنية والخدمة العامة يمثلان أوجه الصرف المهمة. وللسلطان -بالطبع- أملاكه الخاصة التي تدر عليه دخلاً سنوياً خاصة في غيل باوزير.

يبلغ عدد السكان المنحدرين من أصل هندي في المكلا حوالي ٢٠٠ نسمة، ومن أهمهم: يوسف شريف، وكيل شركة بيسي، وكان موظفاً سابقاً في خدمة الدولة؛ وحسين جعفر وكيل مؤسسة كواسجي دنشاو في عدن ومدير مؤسسة قوجراتي العريقة، والتي يمتلكها عبد الله بهوي لالجي.

وقد قضيت صباحاً جميلاً فوق السفينة «بوليفيمس»، وقمت بجمع مجموعة

كبيـرة من المطبوعات الهامشـية اليومية الـتي صدرت حديثاً، مثل: العـدد الأسبوعي لجريدة ديلي ميـرور مما مكنني من الإحاطة -ولو جزئياً- بمجريات الأحـداث العالمية. زارني -في عصر أحد الأيام -أحمد بن ناصر واصطحـبني معه في سيارته إلى القصر الصيفي في الـنقعة، حيث سبـقنا إليه السلطان وابنه، وفي مساء اليـوم التالي تناولت طعام العشاء -مرة أخرى- مع السلطان ،كان عـشاء عائلياً هادئاً. وكانت سعادتي لا توصف عندما لمحت في الساعات الأولى من صباح يوم ١٠ سبـتمبر نقطة صغيرة في عرض البحر، وخـيط رفيع من الدخان المتصاعد، وهذا يعني وصـول السفينة. وعند منتصف النهار وصلت السفينة ومعها قطع الغيار والأفلام والمال.

وعند الساعة الثالثـة من عصر اليوم نفسه، وبعد تناول الغداء فـي قصر عمر، ذهـت إلى السلطان لوداعه وقد أصرّ على قطع نومه ما بعد الظهيرة لاستقبالي، وبعد أن شكرت أحمد بن ناصر على كرمه وعطفـه اتخذت موقعي في السيارة وخرجنا من المكلا. وما أسفت على شيء قدر أسفي على عدم تمكني من رد إحسان وعطف وكرم أهلها الفيّاض.

لقد هطلت أمطار غـزيرة منذ رحلتي الأخيرة على هذا الطريق، كـما أن أودية البويش والشحيـر أعاقت تقدمنا، ومع ذلك وعند الساعة الخامسـة مساء كنا قد قطعنا مسافـة ٣٣ ميلاً ووصلنا إلى مدينة الغيل حـيث سنقضي الليلة فيهـا نزولاً على رغبة والحاح سيد أحمد الحـدادي، الذي زارني بالمكلا وأصر على رد الزيارة. لقد سبق أن سمعت عن جمال وفخامة حـدائق السلطان بمنطقة الغيل، غير أنني ما كنت أتصورها بهذا البهاء والجمال أبداً، وأسـتطيع أن أؤكد بأنني لم أر أجمل منها على الإطلاق في الجزيرة العربية كلهـا. سارت السيارة وسط شارع تحيط به أشـجار جوز الهند، وغابة من أشجار الزينة الأخـرى، ويتوسط هذه الغابة الخضراء حوض مـاء مستطيل الشكل وبجـانبه يقـوم بيت السلطان الـذي يتكوّن من طابقين مع شـرفاته المواجـهـة لحمـام السباحة.

لم نتمكن من إخطار مضيفنا بقدومنا مسبقاً، إلا أن حارس المنزل بعد أن فتح لنا الباب وأدخل أمتعتنا وأغراضنا، توجه فوراً إلى صاحب الدار لإخطاره بوصولنا، وفي هذه الأثناء كان أمامي حوالي نصف الساعة لكي ألقي نظرة عامة على الحديقة. لقد أثار انتباهي وعجبي تعدد أشجار الفواكه في حديقة عربية: النخيل، وأشجار جوز الهند، وأشجار التين، والموز، والباباي، والسفرجل الهندي، والجوافة، والليمون، والرمان والكرم وربما تكون هناك أنواع أخرى لم ألاحظها.

أما أشجار الزينة، بالرغم من أنه لا يوجد ما يضاهي شجرة جوز الهند جمالاً وبهاءً، فقد كانت تشكل جداراً عالياً يحيط بثلاثة جوانب من حوض السباحة، وتشمل نباتات الزينة هذه: أشجار القطن، والنيم، والتمر هندي. وقد لاحظت أن هناك بعض المحاصيل المزروعة مثل: الفلفل، والدخن، وأصابع السيدة (الباميه)، وخضراوات أخرى عديدة. وفي واقع الأمر فإن هذه الحديقة رائعة بكل المقاييس، إضافة إلى أنها أصبحت جنة وملاذاً للعديد من أنواع الطيور الجميلة مثل: الحمام الأخضر، والبلابل، والطيور الحمراء المغرّدة، وطيور الماء، إضافة إلى الأعشاب المتدلية من سعف جوز الهند الذي يشبه المروحة.

وصل القائمقام ولحقت به عند الشرفة حيث وضع الخدم كميات كبيرة من الفواكه: أولاً حليب ثمرتين من ثمار جوز الهند، ثم التين، والرمان والباباي. يمكن وصف سيد أحمد بأنه يميل إلى الوحدة، وهو يعيش في عزلة تامة بمنزل الحكومة المحلية المخصص له والذي يشبه البرج المحصن. لقد توفيت زوجته منذ خمس سنوات، ويتلقى ابنه الوحيد تعليمه في حيدر آباد. والرجل كريم بكل المقاييس وطيب المعشر والصحبة. وبعد قليل وصل بعض الأعيان وأغلبهم من أصل يافعي. جلسنا جميعاً نتجاذب أطراف الحديث حول الموضوع الذي يشغل الجميع، ألا وهو التبغ، حيث عبروا عن بالغ أسفهم لتدني أسعاره خلال السنوات القليلة الماضية، وعلمت أن

هذ الوقت هو ميعاد نثر البذور في الأرض وتجهيز النباتات لغرسها فيما بعد. أما موسم الحصاد فهو في شهر ديسمبر من كل عام. وكان المزارعون، في الزمان الفائت، يعملون بنظام الدورتين في العام، أي يزرعون ثم يحصدون، ثم يزرعون مرة أخرى، غير أنهم اكتفوا بدورة واحدة نظراً لارتفاع التكلفة المالية.

وحدة وزن التبغ هي الفرسلة، وهي تساوي عشرين رطلاً إنجليزياً، وتبلغ حمولة الجمل الواحد عشر فرسلات، أي مئتي رطل. وتبلغ قيمة أجود الأنواع من هذه الحمولة في عدن، بعد خصم أجرة الترحيل بالجمال والباخرة، وكذلك الضرائب المحلية، إضافة إلى رسوم عدن حوالي ٢٣٠ ريالاً، بمعدل ثلاثة وثلاثين ريالاً لكل «منا»، (وحدة وزن هندية)، يزن ٢٨ رطلاً. أما في الوقت الحاضر فقد انخفضت أسعار التبغ إلى ١٣ ريالاً لكل مند، وتبلغ قيمة حمولة الجمل الواحد (عشر فرسلات) ٩٠ ريالاً فقط. وكما سبق فإن هذه الأسعار تمثل أسعار أجود أنواع التبغ المتوفرة في الأسواق والمعروض منها قليل جداً، أما الدرجات الأخرى (الدرجة الثالثة للتُحباك أو الورق عالي الجودة، والثالثة الأخرى للورق الأردأ والساق) فإن أسعارها متدنية جداً بالمقارنة مع السعر المذكور أعلاه. تعتمد بساتين وحدائق الغيل على الري الانسيابي من مياه الينابيع، إضافة إلى أنها تتمتع بمناخ مداري رائع. والأمطار هنا ليست منتظمة الهطول وقد يمر عام كامل دون أمطار. إن أهل الغيل فقراء وتنقصهم المبادرة والاجتهاد، ولا شيء يهمهم غير التبغ. ومما يؤسف له عدم إدراكهم واستيعابهم لمغزى وجود هذه البساتين السلطانية، وما يمكن أن تمثله لهم من سوابق وتجارب يمكن أن يطبقوها بأنفسهم ولمصلحتهم الذاتية.

تتكوّن حامية الغيل من ٢٥٠ فرداً من القوات القبيلية، وليس بينهم جنود نظاميون، وجميعهم من عشيرة اليافعي، ولا يوجد بينهم أي عنصر من العبيد. ولقد لاحظت في المناطق الأكثر استقراراً وجود القليل من ممارسات تجارة الرق إن لم أقل انعدامها تماماً، وبما أن هؤلاء العبيد من المماليك إلا أنهم يعدون في عداد المنقولات

بالنسبة لأسيادهم. أما في المناطق القبلية فهناك ممارسات واضحة لتجارة الرقيق، وقد أخبرني السيد أحمد أنه قضى عشر سنوات من حياته في جاوة حيث كان يعمل مقاولاً في مجال مواد البناء المتعلقة بتشييد حصن كانت الحكومة الهولندية تنوم بإنشائه، وبعد ذلك نُفي خمس سنوات أخرى في حيدر آباد وبعدها أي قبل ستة أشهر فقط، وصل إلى المكلا مع السلطان. وأضاف الرجل قائلاً أن تعيينه في النيل يعد أول وظيفة حكومية يشغلها، لكنه نقل إلى وظيفة أخرى في سكرتارية المكلا تحت "النظام الجديد" وأن خلفه الأكثر حيوية ونشاطاً، عمر المخيرش، قد اغتاله بعض أفراد قبيلة الحموم في يناير ١٩٣٨م.

وعند مغيب الشمس وكذلك صباح اليوم التالي استمتعت بحمام في حوض السباحة، وبعد تناول طعام الإفطار، قمنا -السيد أحمد وأنا- بنزهة في الحدائق المجاورة وزرنا بقايا قلعة قديمة إضافة إلى القصر المخصص لحريم السلطان والذي يفصله من الحديقة فاصل كثيف من أشجار الزينة.

يتميز المبنى المخصص للنساء بالطابع المحلي البحت بالمقارنة بالمنزل المخصص للرجال. وبعد أن شاهدنا كل ما نريد مشاهدته في منطقة الحديثة ذهبنا إلى المدينة ودخلناها بالسيارة، من البوابة الغربية وواصلنا سيرنا مروراً بالمدرسة والمسجد الكبير حتى وصلنا الفسحة المواجهة للبوابة الشرقية، وأبرز معالمها هو حصن منصور الذي يقيم فيه القائمقام. صعدت إلى سطح الحصن وتمكنت من مشاهدة المدينة والمنطقة الريفية التي تحيط بها، وبعد وجبة خفيفة وقهوة قدمها لنا مضيفنا ، واصلنا السير مرة أخرى لزيارة مزارع التبغ الواقعة في طريق الشحر.

تتوسط منطقة التبغ بئران ارتوازيان كبيرتان هما: حومة الحرف وحومة غالب، وتقعان على بعد ميلين شمال المدينة. وتشبه هذه الآبار بمياهها العميقة والداكنة آبار مناطق الخرج والأفلاج والتي أعرفها جيّداً. وقد شاهدنا عند وصولنا مجموعة من

الأطفال يستحمون في إحدى هذه البرك المائية. إن الأحواض التي تنمو عليها نبتة التبغ لا تسقى من هذه البرك وإنما تسقى من آبار محفورة ويتم رفع المياه بواسطة قواديس (دلو) مربوطة بحبال، ويتم سحب الحبال فوق بكرات مثبتة على منصة فوق فوهة البئر. وهذا المنظر يشبه مناطق الفحم في إنجلترا.

يُزرع التبغ في أحواض مربعة وصغيرة جداً، وكان وقت زيارتنا قد بدأ ينمو ويظهر فوق سطح الأرض. وبعد أن تنمو النبتة وتصل إلى حجم معين يتم خلعها من جذورها لإعادة غرسها في مربعات كبيرة في داخل وحول القرى والبساتين المجاورة. تسمى منطقة زراعة نبتة التبغ والآبار التي ترويها بـ "القاف"، ويوجد بستان نخيل صغير اسمه النقيعة يقع في طيه وسط الجبال على بعد نصف ميل في اتجاه الشمال الشرقي. يبلغ إنتاج التبغ السنوي لمزارع الغيل حوالي ٤٠٠٠ بهارة من التمباك درجة أولى -به ثلاثة درجات مختلفة-، إضافة إلى ١٥٠٠ بهارة من الأوراق ذات الجودة المتدنية، ويمكن تقدير قيمة الإنتاج السنوي للمحصول في حدود ٢٥٠٫٠٠٠ ريال (حوالي ١٩٫٠٠٠ جنيه إسترليني)، بينما يمكن أن ترتفع القيمة في عدن، بعد خصم جميع المصروفات، إلى ٤٥٠٫٠٠٠ ريال حوالي (٣٤٫٠٠٠ جنيه إسترليني)، ويبلغ نصيب الحكومة في حدود ٩٠٫٠٠٠ ريال (٧٫٠٠٠ جنيه إسترليني)، وما تبقى يمثل أجور النقل والضرائب الأخرى وأرباح الوسطاء. وإذا تم تطبيق الأصول الصحيحة لتسويق إنتاج الغيل من التبغ يمكن أن تزيد أرباح المزارعين أضعافاً مضاعفة، بالمقارنة بأرباحهم الحالية. ويمكن أن نقول: إن شركات إنتاج التبغ الكبرى تستطيع أن تطرد صناعة الغيل وتبعدها عن المنافسة إذا تمكنت (الشركات الكبرى) من جذب جمهرة المدخنين إلى إنتاجها. وفي فترة من الفترات كان الجميع على ساحل البحر الأحمر مثلاً يدخنون التبغ "الحمومي" المشهور. أما أبناؤهم اليوم فإنهم يفضلون أصناف "بلمنغ شوز" و "لكي إسترايكز".

وصلنا الشحر بسلام حوالي منتصف النهار، وعند وصولي إلى استراحة آل الكاف أخبرني الدكتور خواس أن «نورمان بيرن» قد عاد من محاولته غير الموفقة في شبوة، وأنه قد ركب لتوه الباخرة «أفريقيا» والتي من المفترض إبحارها في أي لحظة. واقترحت عليه أن نأخذ مركباً صغيراً لوداع الرجل. ولم تمر دقائق معدودة حتى كنا على ظهر مركب يجدفه طاقم من الزنوج الأشداء، وشق المركب طريقه وسط الأمواج العاتية، وكان بيرن وربان السفينة فوق السطح العلوي للسفينة يقرؤون الصحف، وبعد قليل أخبرني نورمان بتفاصيل الاضطرابات التي حدثت في الصحراء. وهذه كانت نهاية مؤسفة لجهد بدأ بالكثير من حُسن النية مع انعدام التجربة والمعدات اللازمة (مالية وعلمية)، والتي لا يمكن إغفالها أثناء السفر والترحال في الجزيرة العربية. وقد أعرب ربان السفينة عن دهشته لأي شخص لديه الرغبة في التجوال في هذه الصحارى. وهو نفسه الذي يصطحب المسافرين على باخرته للنزول في هذا الساحل القاني وغير المضياف، ثم يعود بهم إلى ديارهم وهم أكثر خبرة وحنكة وتجربة، وإن كانوا أقل وزناً. لقد أخبرت القبطان بأنني أفضل العودة إلى جدة عن طريق البر، كما أنوي أن أفعل، وليس على ظهر قاربه الذي أصبح داراً له. ينظر البحارة دائماً لوظيفة مريحة فوق اليابسة وبعيداً عن أهوال البحر، وذلك لقضاء خريف وشتاء ما تبقى من حياته في البحر. إن الاستقرار وطيب العيش هو هدف إنساني يسعى الجميع لتحقيقه: والبحارة ليسوا استثناء من هذه القاعدة.

لقد كانت الباخرة أفريقيا جاهزة وعلى أهبة الاستعداد للعودة إلى المكلا وعدن، وتمنيت للرجلين رحلة سعيدة ثم غادرنا السفينة وعدنا إلى اليابسة وبعد ذلك قمت بجولة طويلة حول المدينة وصورت معالمها الرئيسة ثم ذهبت إلى منزل السيد الشيخ الشتيري لتناول وجبة الغداء، وعند منتصف الأصيل كانت سيارتنا تطوي الأرض طيّ عبر البوابة الشمالية في اتجاه بداية طريق الخروج، وتعرض أحد إطارات السيارة لثقب عطل مسيرنا قليلاً، ومع ذلك وصلنا إلى المكان المقصود قبل غروب الشمس وأقمنا

معسكرنا استعداداً لقضاء الليلة هناك، كما فعلنا في المرة السابقة لم يكن معنا طعام للعشاء وقد كانت معي قطعة كيك أحضرتها معي من الشحر، إضافة إلى تفاحة وجرزة هند وهي تكفي لتخفيف حدة الجوع، ومع انعدام أي مصدر للإنارة في هذا المكان الخلوي كان عليّ أن آوي إلى فراشي مبكراً وكان البعوض يلسعني من وقت لآخر، وكأنه يبحث عن ضحايا في أسفل الوادي. بذل زعيم قبيلة المعدي جهداً مقدراً لإحضار بعض الطعام، على حسابي الخاص، وعرض علينا إرسال شخص إلى قريته لإحضاره، وأخبرته بأنه من واجبه أن يبذل قصارى جهده لراحة ورفاهية ضيفه، بدلاً من مساومة أحدهم حول ثمن كرم الضيافة! وعلى كل حال كان الوقت متأخراً ومن المؤكد أنني سأنام قبل إحضار الطعام وتجهيزه وطبخه. ثم ماذا إذا قضينا ليلة واحدة بدون طعام بعد كل الترف والرفاهية التي عشناها خلال الأسبوعين الأخيرين في المكلا.

قضينا الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني لحسم مسألة الجمال التي ستحمل أغرضنا إلى المعدي، وكذلك استمرار سيرنا عبر سلسلة الجبال التي أمامنا. صعدت قمة أحد الجبال الصغيرة وتركت للرجال قرار تحديد أجر الجمال أو أن يتركوا المسألة لتقديري الشخصي فيما بعد. وبعد كثير من الجدل اختاروا الخيار الثاني وبدأنا سيرنا على طريق المعدي وكان الجو هادئاً مع ضباب ورطوبة، وبعد مسيرة قصيرة بزغت الشمس وبدأت ترسل أشعتها الحارقة على أجسادنا، مما أفسد علينا متعة الرحلة الصباحية، مع ذلك وصلنا المعدي حوالي السابعة والنصف صباحاً وخلدنا إلى راحة طويلة حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حيث بدأنا سيرنا على الجبل. لقد سبق أن اشتريت عندما كنت في الشحر، ترمسين يابانيي الصنع وكان ثمنهما بخساً نسبياً، أي حوالي الشلنين للواحد، وكان هذان الترمسان من أسلحتي المهمة جداً للسفر عبر الصحراء، ذلك أنهما كانا يوفران لي الشاي الذي أحبه في أي وقت أطلبه ليلاً أو

نهاراً، مما أراح مرافقي كثيراً وأعانني شخصياً على تحمل الرحلة حتى نهايتها. ولقد هنأت نفسي كثيراً على هذا القرار الصائب وهذا الإنجاز الرائع.

وبينما انشغل الرجال بتحضير وجبة الغداء المكوّنة من الأرز وتوابعه من جوز الهند والقهوة، آثرت أن استحم في البركة شبه الراكدة حيث ابتعدت الضفادع والحشرات المائية وتركت كل شيء تحت تصرفي، وقد وزعت وقتي بين الصخور الواقية وأشجار التين البري بحثاً عن ظل يحميني من أشعة الشمس. يستخدم السكان المحليون سائل شجرة التين البري كمرهم لعلاج الجروح، ويقال: إن له خواصّ تساعده على سرعة التئام الجروح، ولاحظت في زيارتي الحالية هذه أن حضور وتوافد النساء أصبح مكثفاً وملحوظاً بالمقارنة بزيارتي السابقة. وقد شاهدت بعضهن يسقين الأغنام والقنان للسقاية، أما الأمهات -من بينهن- فقد كن يحملن صغارهن فوق منطقة الورك أو داخل وعاء جلدي صغير يشبه دلو الماء، وذلك وفقاً لعمر الطفل المحمول. ترتدي النساء ملابس ثقيلة مع أن التنورة لا تغطي الكاحل أو تتدلى إلى الأرض كما عند نساء نجد. وتجدر الإشارة إلى أن استعمال التنورات الطويلة في المناطق الجبلية غير مناسب، إن لم يكن خطراً. ترتدي نساء اليمن ثوباً خارجياً فضفاضاً أزرق اللون مع أكمام واسعة تكشف عن الخاصرتين، بينما يغطى الرأس بحجاب كثيف مع منديل طويل يكاد يغطي حتى العينين، وتبدو عليهن سيماء التعب والكآبة كما أنهن يفتقرن إلى غنج ودلال أخواتهن البدويات.

قررت أن أتمشى قليلاً لاستكشاف المنطقة، وصعدت أحد الجبال المجاورة ـلم تكن تجربة سيئة على كل حال، خاصة وأن هبوب عاصفة رعدية قد لطف الجو كثيراً مما ساعدني على الوصول إلى قمة الجبل. وبعد هنيهة، هطلت أمطار قليلة فقفلت راجعاً إلى موقف السيارات في رأس الحروة. قام الرجال بجمع بعض الحطب الجاف وأوقدوا نار المعسكر وامتلأ الجو برائحة الحريق والدخان. أمضينا حوالي الساعتين والنصف منذ أن تحركنا من المعدي حتى وصولنا قمة الجبل، وقد سعد الذين كنوا

يتولين حراسة السيارات في غيابنا أيما سعادة بعودتنا، ولاحظت قطيعاً من الضأن حول المعسكر وكان أصحابها قد جلبوها إلى هنا على أمل أن نشتري منهم، غير أن أسعارها كانت مرتفعة.

لقد زاد عدد المجموعة التي تصاحبني من الرجال ووصلوا حوالي العشرين شخصاً، ولا يوجد -قطعاً- طعام يكفي هذا العدد، لهذا رأيت شراء خروف وعرضت على صاحبه مبلغ خمسة ريالات، وهو السعر الساري في أسواق المدن إلا أن أصحابه أصروا على سبعة ريالات رفضت وأخبرت مرافقي برغبتي في النوم بدون عشاء. قال زعيم مجموعة المعدي: "لكن ليس لدينا معاش (طعام)" وهم في الظروف العادية لا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع، إذا تيسر لهم ذلك. وأجبته محاكياً نفس نبرته ولهجته: «ولا حتى أنا». واستطردت: «لكنني سأعيش بدونه». هنا انخفض السعر المعروض إلى ستة ريالات، لكنني رفضته على أساس أنه سعر غالٍ: «خمسة ريالات ونصف؟» حاول أصحاب القطيع لكنني بقيت عند موقفي وعندي، ولم يكونوا هم أقل عناداً على كل حال. وفي نهاية الأمر، ولكي أضع حداً للجلبة والضوضاء ناديت عوضاً وأخبرته بأنني سأدفع خمسة ريالات ونصف للخروف وإنني لن آكل منه شيئاً. وكل هذا لم يحرك ساكناً في أصحاب الخروف. وتحول غضب وسخط البدو إلى ضحكات ترقب وأمل وهم جالسون حول قدر الطعام. وعلى أي حال لا أستطيع أن أجزم متى تناول القوم عشاءهم بعد أن ذبحوا الخروف. ذلك أنني كنت قد شبعت نوماً وقتها ولم يحاول أي منهم أن يعكر صفو نومتي تلك. ويبدو لي أن هؤلاء القوم غير طيبي المنبت والأصل، وربما يكون من الخطأ الشنيع الحكم عليهم بأي من المعايير الإنسانية. ولقد انطبعوا في ذاكرتي وحوشاً كاسرة، غير أنهم مسلون. ومع هذا فإنني لا أملك إلا أن أشعر بوخز الضمير، ذلك أن طريق السيارات الذي يعبر منطقتهم الجبلية المنحدرة وغير المضيافة سوف يؤدي -وإن كان ببطء وثبات- إلى تشذيب سلوكهم وطبعهم إلى مستوى عالم يختلف

اختلافاً شديداً عن العالم الذي يعيشون فيه منذ الخليقة. إن الحياة القاسية والمعاناة الشديدة، وشظف العيش قد وجهت ذكاءهم الإنساني لخدمة أهداف وغايات لا تختلف كثيراً عن أهداف وغايات غير عقلانية. إن الصفة المميزة لهؤلاء هي الأنانية: وقياساً على هذا المعيار فإن مواطني المعدي -وأقرانهم الآخرين الذين يعيشون في مضائق حضرموت- ليس لهم منافس خطير[1].

في صبيحة اليوم الثاني، وبعد انقضاء ليلة هادئة ونوم مريح، كنت في حالة نشوة واسترخاء دفعني لمراقبة سلوك هؤلاء القوم الذين لن أراهم مرة أخرى. أجريت عملية حسابية ذهنية سريعة للتموينات والخدمات المصاحبة التي قدمها القرويون وقررت أن مبلغ عشرة ريالات كان كافياً كتعويض لهم، بما في ذلك ثمن الخروف. ولم أكتف بذلك بل قررت مضاعفة المبلغ ووضعت مبلغ عشرين ريالاً في جيبي لأسلمها لعوض عند مغادرتنا المعسكر. هذا الترتيب لم ينفذ بحذافيره، ذلك أنه بعد أن استيقظت من النوم وبدأت في شرب شاي الصباح مع ما تبقى من جوزة الهند. جاء عوض يحمل فاتورة حسابه كأنني سأهرب من المكان قبل تسديدها. وقد قاومت رغبة ملحة في أن أقذف مبلغ العشرين ريالاً في وجهه وأخبره بأن يذهب إلى الجحيم، وبدلاً من ذلك بدأت مراجعة الفاتورة وكانت كما يلي: ٥,٥ قروش (ريال) ثمن الخروف، ١ قرش ثمن قربة ماء، ١ قرش ثمن جوز الهند، ٢ قرشان جمل الترحيل، ١ قرش للأرز الذي قُدِّم لنا في القرية بالأمس، إضافة إلى أصناف أخرى. حتى بلغ المجموع أربعة عشر ريالاً ونصف الريال. وقمت بتسديدها مباشرة مع ملاحظة أن قيمة كل الأصناف المذكورة كان مبالغاً فيها ومع ذلك لم أسأل أو أعترض، وكان عوض سعيداً أنه تمكن من أن ينتزع مني كل هذا المبلغ، وذهب

(١) يلحظ هنا قسوة من المؤلف في أوصافه لأهل هذه المنطقة ويبدو أنه كتب عباراته تحت تأثير تلك المواقف التي مرَّ بها وهي تجارب شخصية في ظروف معينة لا يمكن أن تعطي معلومات وافية لبناء هذا التصور المبالغ فيه من فيلبي. (المراجعون).

ليقتسم الغنيمة مع بقية الخلق الآخرين. كان ضجيج نقاشهم لا يوصف، ولم يدرِ أي منهم أنه كان بمقدورهم اكتساب خمسة ريالات ونصف أخرى لو كانوا أكثر حصافة ودبلوماسية.

وبينما انشغل عوض وزملاؤه في تقسيم الغنيمة. بدأنا نحن في تجهيز السيارات استعداداً للسفر. لقد تبخر كل الوقود الذي كان في صهريج السيارة، وأذكر أنه عندما تركنا السيارات في هذا الموقع قبل أسبوعين، كان الصهريج ممتلئاً حتى النصف وكان لدينا وقوداً إضافياً في صفائح محكمة الإغلاق. شغل السائقون محركات السيارات وانطلقنا وتركنا البدويين وراءنا منشغلين في حل المعضلة الحسابية المتعلقة بتوزيع مبلغ الأربعة عشر ريالاً ونصف الريال !. وبهذه المناسبة أجد لزاماً عليّ أن أذكر أن سيد أبوبكر، أحد الأخوة من آل الكاف، وبعد أن سمع بالنفقات المالية التي دفعتها للأعراب نظير حراسة السيارات في غيابنا، أصر على دفع كامل قيمة الفاتورة التي تبلغ ستين ريالاً، ذلك أنهم -إثباتاً لأصول الكرم العربي- يعتقدون أن كل مسافر داخل حدودهم هو ضيف عزيز يجب إكرامه. إن فضائل هؤلاء القوم لا يمكن تقييمها بالمال أبداً.

ومع شروق الشمس، وبسبب العاصفة الرعدية العابرة، هطلت زخات من المطر استمرت مدة عشر إلى خمسة عشر دقيقة، بينما تجمعت سحب كثيفة فوق البحر ومع ذلك يمكن -بالعين المجردة- رؤية مدينة الشحر وبعض المعالم الأخرى. أعطينا ظهرنا للمحيط الهندي واندفعنا داخل متاهة الجبال الصحراوية. كان معظم الأودية ممتلئة بمياه الأمطار التي هطلت هنا قبل فترة وجيزة، وعادت الحياة والخضرة إلى الهضبة الواسعة والجافة، والتي كانت ميتة عندما عبرناها قبل أسبوعين، وخرج البدو من الأودية وانتشروا في الهضبة وكل يختار المكان الأكثر خضرة وعشباً لرعي قطعان ماشيته، وقد بدأ سكان منطقة وادي ريدة ووادي العشرة استعداداتهم للزراعة الموسمية.

احتشد جمع من سكان قرى القرن (ديرة آل حسن) عندما سمعوا أصرات السيارات، وذلك لاستقبال طالب بعد غيابه الطويل، ولاحظت وسط هذا الحشد البشري فتاة صغيرة عليها علامات وشم كثيرة. لم تكتمل فرحة طالب بالبقاء مع أهله، ذلك أنه يجب عليه مرافقتنا حتى تخوم منطقة المعارة، وقد حاول مرة أو مرتين الرجوع إلى دياره قبل أن نصل تلك التخوم إلا أنني رفضت وطلبت منه مرافقتنا حتى سفوح (الجبل) الذي يقع خلف أودية العشرة. وفي هذا الوادي بالتحديد غرزت إحدى سيارات آل الكاف، ماركة بويك، في بركة بجانب الطريق، وقد ساعدنا طالب كثيراً في تخليصها من هذا الوحل الشديد. والرجل يتمتع بذكاء وفطنة، غير أنه عندما حانت لحظة الفراق أظهر كل عيوب عشيرته البدائية. لقد كان الاتفاق لمبرم بيننا هو أن يتقاضى طالب ريالاً واحداً يومياً -تماماً مثل الرجال الآخرين من قبيلة المعدي- وبهذا يكون مجموع استحقاقاته عشرين ريالاً، إلا أنه طلب عشرة ريالات أخرى نظير مرافقته لنا. رفضت طلبه جملة وتفصيلاً وأخيراً قام الرجلان من قبيلة الجبيري بإقناعه بقبول مبلغ العشرين ريالاً وأطنبا في وصف شهامته وشجاعته. ارتسمت علامات الرضى والسعادة على وجهه وغادرنا عائداً إلى دياره مردداً قولة البدو المحليين: سماح.

بعد أن تخطينا جرف العشرة، غرزت السيارة ماركة بويك، مرة أخرى مدة ساعة كاملة، في أحد مجاري وادي زبون، وعند طرف أخدود رسب قابلتنا امرأة من قبيلة الجبيري ترعى غنيمات لها. قبّلت المرأة أيدي مرشدينا الاثنين وزودتهم بآخر أخبار الطقس والقبيلة. ونحن نواصل سيرنا في الوادي كثيف الأشجار لاحظنا غزالة منطلقة بسرعة البرق بعد أن سمعت أزيز السيارات، ولاحظت أيضاً وعلى مسافة بعيدة عبر سهل أجرد، ثلاثة رجال يسيرون على طريق بعيد عن خط سيرنا، وبعد أن شاهدونا اندفعوا مسرعين نحو الطريق في محاولة للوصول قبلنا وقطع الطريق علينا.

بدا لي الأمرغريباً وسألت المرشدين هل نتـوقف لهؤلاء الرجال أم نواصل سيرنا، وقد نصحوا بعدم التوقف، وأضافوا أن الرجال الثـلاثة من جماعة الجبيري ولا أحد يعرف ماذا وراءهم. زاد سائقنا محمد من سرعـة السيارة، وتوقف أحد الرجال عن محاولة قطع الطريق علينا. أما الرجل الآخـر، وبعد أن أيقن أننا سنعبـر منحنى الطريق قبل وصوله إليـه بزمن طويل، فقـد جلس مستنداً على ركـبته ورفـع بندقيتـه فوق كتـفه استعـداداً لإطلاق النار، وفي هذه الأثناء كنا في محاذاته تماماً، إلا أن محـمداً سائقنا الماهر، انحرف بالسيارة عن الطريق الرئيس عبر السهل الحجري، ودفعت غريزة البقاء -كلينا- إلى الانحناء إلى أسـفل حتى لا يصـيبنا الطلق الناري، وبالرغم من سـرعة الحـث والارتباك فقد كان لدي شعـور بأن المرشدين الاثنين اللذين يجلسان في المقعد الخـفي سيكونان هدفاً سهلاً للقناص، وكانت لحظات عصيبة إلا أن الرجل لم يضغط على الزناد أبداً.

شرح لنا محمد أن أحد أصدقائه من المكلا أخـبره بالخدعة البسيطة التي تعلمها قطع الطرق هؤلاء، وهي إصابة إطار السـيارة مما يجبر السائق علـى التوقف ويصبح السائق ومرافـقوه عرضة للابتزاز والتهـديد. وعليه فإن انحراف محمـد بالسيارة على بعد ٥٠٠ ياردة أصبح أمراً عـسيراً، إن لم يكن مستحيـلاً على القناص. أما السيارة الثانية فقد كانت تسير أمامنا بمسافة طويلة ولم تتعرض لهذا الموقف الحرج. عاد قاطع الطريق أدراجـه وانضم إلى زملائه. ومن عـجائب الصدف أن كـابتن بيش الأوروبي الذي سافـر بعد ذلك على هذا الطريق نـفسه قـد تعرض لإطلاق النار، وأن سـائقه وركباً آخر قـد أصيبا، وربما كان السائق لا يعرف خدعـة إطار السيارة المطاطي. وقد وضع الكابتن بيش في الخريطة التي رسـمها للطريق علامـة سيفين متـقاطعين، إشارة إلى حادث عسكري، ويبدو أنه المكان نفسه الذي تعرضنا فيه للحادث المذكور. قامت سلطات عدن بغارة جوية وإسقاط قنابل على مـساكن رسب، انتقاماً لما حدث للكابتن

بيش، نتج عنها موت ثلاثة أشخاص (امرأة وطفلان) كانوا يحاولون إبعاد غنمهم خارج جحيم القصف[1].

عند مرورنا بقرية ضبوع في طريقنا باتجاه الجنوب، وجدناها خالية من سكانها الذين هاجروا إلى وادي صرو القريب. قابلنا على مشارف القرية خمسة رجال من بدو قرية ضبوع وأجبرونا على التوقف وقد أصبحنا بالفعل تحت رحمتهم.

ذلك أن السيارة الأولى كانت قد تعرضت لمشكلة تتعلق بأنبوب توصيل البترول مما اضطرنا للانتظار مدة نصف ساعة لإصلاحه. كانت مطالب الرجال الخمسة -على الرغم من أننا نصطحب اثنين من قبيلتهم- هي دفع رسوم الطريق، وهذا إجراء غير قانوني وعندما أخبرتهم بأنني ممثل لابن سعود تراجع الرجال عن مطالبهم فوراً. تناولت بندقية الصيد، وذهبت في جولة لمشاهدة الطيور التي يوجد الكثير منها بمختلف أنواعها خاصة بعد توفر المياه والعشب بالمنطقة مثل: القطا، والوروار، والشادي الأحمر وأنواع أخرى عديدة. كان مشايخ المستوطنة المعزولة مشغولين في حرث أراضي حكامهم من قبيلة الضبيري وقد امتد حرثهم حتى شمل جزءاً من الطريق بهدف زيادة المساحات المزروعة مما تسبب في إعاقة سير السيارات.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر وأصبح الأمل ضعيفاً في قطع مسافة الستين ميلاً للوصول إلى مدينة تريم قبل مغيب الشمس ولم تقابلنا أية عوائق أخرى في الطريق، وعند المغيب كان أمامنا حوالي عشرة أميال إلى خمسة عشر ميلاً للوصول لمحطتنا التالية. وبما أنه ليس هناك داع للسفر ليلاً فقد فضلنا إقامة معسكرنا في منطقة مسطحة في هذه الهضبة الجبلية، وحسب علمي فإن احتياطنا من الطعام قد انتهى إلا أن أحد المرافقين كان لديه كمية من الأرز تكفي لوجبة العشاء. أرخى الليل سدوله وغطت السماء الصافية بنجومها اللامعة الصخور الكلسية الجرداء، ومع ذلك

(١) المقصود بسلطات عدن: السلطات البريطانية في عدن. (المراجعون).

أصوت جحافل البعوض على مصاحبتنا وإزعاجنا إلا أن برودة الطقس كانت كافية لوضع حد لهذا الغزو .

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي رأينا ثلاثة رجال من البدو على ظهر جمال ولكنهم كانوا مسالمين ولا ينوون أي شر، بل واصلوا سيرهم -فيما أظن- إلى غيل ابن يمين. وسرعان ما بدأت ملامح الوادي الرئيس في الظهور وراء أخاديد الهضبة الجبلية، وفي تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً وصلنا رأس العقبة التي تؤدي -نزولاً- إلى تريم وفضلت السير على الأقدام بالطريق المنحدر والمتعرج وبعد ذلك ركبت السيارة التي قطعت المسافة القصيرة عبر الوادي حتى وصلنا منزل مضيفنا سيد عبد الرحمن ابن الشيخ الكاف، المبنى جميل ومن الطراز الحديث ويتكوّن من طابق أرضي مع حوض سباحة كبير ويوجد بجواره مبنى قديم في ضاحية حديقة عيلبيد.

السيد عبد الرحمن هو زعيم أسرة آل الكاف وكان منزله مكتظاً بالضيوف بما فيهم أعضاء البعثة المصرية والذين تنحصر نشاطاتهم واهتماماتهم العلمية في علم الإنتروبومتري بينما انحصرت اهتمامات المهندس توفيق في القبض على الجنادب وأي حشرات أخرى تدخل المنزل ليلاً.

لقد علمنا عند وصولنا منزل مضيفنا، أن ابنه الثاني والأكثر تحضراً وتمدناً واسمه السيد أبو بكر قد غادر إلى منزله في سيئون وبصحبته مهندس تركي كان قد حضر معه من عدن لفتح وإنشاء ورشة لصيانة وخدمة السيارات وبعض الآليات الأخرى التي أصبحت من معالم هذا الوادي. وكان من بين الحضور أيضاً أهل الشيخ أبوبكر، عميد أسرة السيد الذي قدم من منطقة عينات وهو شيخ وقور في الخامسة والسبعين من عمره ويبدو فخوراً بحفيداته الكثر على الرغم من أن أيًا من أحفاده الثلاثة عشر لم ينجب ذكراً ليحمل اسم وزعامة القبيلة ويحفظ الإرث الذي لم ينقطع خلال خمسة وثلاثين جيلاً. لم ينقطع أمل السيد محمد في أن يُولد ذكر في العشيرة

لحمل الاسم والرسالة وليس لديه ما يؤرقه خاصة أن أبناءه الثلاثة وأحفاده الثلاثة عشر ما زالوا في ريعان الشباب وقمة الخصوبة.

تمتد جذور أسرة السيد محمد إلى جدهم الأكبر الشيخ أبوبكر والذي تفصل بينهما عشرة أجيال كاملة وقد أخبرني الرجل -عندما كنا نتقاسم إحدى غرف المنزل في ظهيرة أحد الأيام- بتفاصيل شجرة نسب العائلة التي تستحق الذكر: هو السيد محمد بن علي بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر بن عبدالله بن أبي بكر بن حسن بن حسين بن الشيخ أبي بكر، -الجد الذي اشتقت منه القبيلة اسمها- بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. أول الأسماء التي تحتها خط في القائمة أعلاه (أحمد) يعود إلى مؤسس نفوذ أسرة آل الكاف في حضرموت. أما بقية الأسماء التي تحتها خط فهي لأئمة طائفة الشيعة.

إذا افترضنا ثلاثة وسبعين عاماً متوسط عمر كل جيل من هذه الأجيال الخمسة والثلاثين، نكون أدركنا سر قوة واستمرارية حكام حضرموت والتي ظلت موطناً للعشيرة قرابة الألف عام. ويتطلع السيد محمد -مثل بقية زعماء شخصيت حضرموت- أن يسود السلام والأمن في الحاضر والمستقبل ولم يخف الرجل رغبته الشخصية في أن يرى ابن سعود حاكماً مطلقاً أو سيداً باسطاً سلطته على حضرموت وليس لديه تحفظات تجاه وجهة نظره هذه. أما في الوقت الحاضر فقد رمى الرجل بثقله في مؤازرة سلالة القعيطي الحاكمة وقد وقع معها اتفاقية أو معاهدة وتنفيذاً لأحكامها فقد تم وضع كتيبة من خمسة وعشرين جندياً من قبيلة القعيطي لحماية عينات من غدر بعض القبائل الأخرى، ولقد ألحّ عليّ الرجل كثيراً لزيارته بمنزله وقام

بوضع الترتيبات اللازمة لزيارة قبر هود والكهف الغريب، وبئر بَرَهُوت[1] وكان الانصباع السائد لفترة طويلة من الزمن أن هذا الكهف يحتوي على فجوة بركانية نشطة حتى أثبت كل من فان ديرمولين وفون فيسمان أنها مجرد فجوة في الصخور الجيرية. وكان من بين الزوار أيضاً، السيد عيدروس بن عمر بن أبي بكر بن عبدالله وأظنه من عينات أو منطقة قريبة منها ومن المحتمل أن يكون صنواً للسيد محمد في المكانة الاجتماعية. وجاء من الجانب الآخر للوادي، من مشهد بوادي دوعن تحديداً، ضيف من السادة العطاس هو السيد أحمد بن حسين بن عمر بن هارون العطاس ومعه شقيق السيد حامد الوزير الجديد الذي تم تعيينه بالمملكة عمر بن أبي بكر بن حسين المحضار وهو أيضاً من وادي دوعن. أما والده أبوبكر فقد كان وزيراً سابقاً -مثل والده من قبله- وهو الآن على قيد الحياة مع أنه استقال من الوظيفة المهمة بسبب كبر السن والضعف والوهن ويكفيه على كل حال أن يرى ابنه حاملاً الراية نيابة عنه.

يشعر المقيم في مدينة تريم بعبق القداسة والتدين إلا أن أحاديث المائدة التي تتم بين علية القوم العصريين لا تتطرق للدين أبداً إنما تنحصر حول التطور الاقتصادي تليه في الأهمية أمور السياسة والحكم والزعامة. وكان المحور الأخير يدور حول اتفاقية ١٩١٨م وإن اتسم الحديث حولها ببعض الحذر والسرية. الجدير بالذكر أن الاتفاقية المذكورة لم تكن في مصلحة سلاطين آل كثير مما ملأ صدور جيل كامل منهم بالضغينة والبغضاء مع العلم أنه -أي هذا الجيل الحديث- لم يستوعب تماماً الظروف والملابسات التي أدت إلى إبرام الاتفاقية. ولم يكن هناك أدنى شك من أن سلاطين آل كثير سوف يضعون حداً من جانبهم لهذه الاتفاقية والمسألة كلها مسألة وقت

(١) برهوت: بئر في حضرموت ونقل الحجري عن القاموس أنه: «واد أو بئر عميقة بحضرموت اليمن لا يستطاع النزول إلى قعرها، وهو مقر أرواح الكفار كما حققه ابن ظهيرة في تاريخ مكة، وأخرج الهروي عن علي -رضي الله عنه- والطبراني في المعجم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- شر بئر في الأرض برهوت». الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص١١٧. (المراجعون).

وأسلوب. ولقد تطرق بعض المتحدثين بصراحة إلى إمكانية تدخل ابن سعود لتسوية هذا النزاع، غير أنه كان واضحاً للجميع أنه لابد أولاً من تصفية الضغائن والحساسيات التي تسبب فيها البريطانيون قبل وضع حد نهائي للخلافات القعيطية/الكثيرية، وأثناء إقامتي في تريم كان الجميع يأملون في تدخل ابن سعود لوضع خطة تُرضي الجميع وتؤدي في نهاية المطاف إلى السلام والأمن والاستقرار

ونظراً لضيق الوقت فقد أرسلت محمداً إلى شبام ومعه قطع الغيار التي أرسلت من المكلا لإصلاح الشاحنة الخفيفة بينما أمضيت وقتي متنقلاً بين تريم وسيئون، وقد كان ظن محمد إنجاز مهمته في غضون يومين واتفقنا على أن ألتقيه في شبام في منتصف يوم السابع عشر من شهر سبتمبر، وفي هذه الأثناء كان لديّ متسع من الوقت والفراغ للتجول والتحدث مع الآخرين وقد قابلت أحد مواطني مكة وسمه حسين شيبة ويعمل في وظيفة سكرتير للسيد عبدالرحمن، وهو شقيق لمصطفى الذي يعمل في مصلحة التلغراف بالسعودية، وقد توطدت العلاقة بيننا وأصبح حسين المرشد والفيلسوف والصديق الحميم، وقمنا برحلة إلى تريم وضواحيها كما زرنا العديد من أعيان ووجهاء المدينة وعلى رأسهم السلاطين. وفي يوم وصولي أقيم حفل غداء كبير بمنزل السيد عبدالرحمن، أما العشاء فقد كان بمنزل السيد محبر بن حسين. أما وجبة غداء اليوم التالي فكانت بمنزل علوي بن أبي بكر الكافي وتخللها نقاش سياسي مستفيض وكانت وجبة العشاء بمنزل أحد أفراد عائلة الكاف واسمه لسيد محمد بن حسين بن شيخ والذي آنسني كثيراً أثناء زيارتي السابقة واصطحبني في زيارة إلى حديقته الوارفة الجميلة في عيديد والتي تروى بواسطة ماكينة ضخ نوع دويتز. وبهذا يمكن القول: إن الحياة في مدينة تريم أصبحت سلسلة لا تنقطع من المناسبات واللقاءات الاجتماعية والولائم وكان وقتي (بالطبع) قصيراً جداً.

تتكون مدينة تريم من عدة أحياء وقرى قديمة متفرقة التقت مع بعضها نتيجة حركة العمران والنمو والتوسع حول المركز. والمعلم البارز للمدينة هو منطقة السوق

والتي تتكون من أزقة ضيقة ومنازل لا تلفت الأنظار كثيراً عدا مجموعة من قصور زعماء قبيلة آل الكاف بالناحية الشرقية. يقع حي النويدرة على جانبي السوق ويمتد في اتجاه الشمال الشرقي حتى بوابة دمون، أما الجانب الآخر من السوق فيقع فيه حي الخليف الذي يمتد في اتجاه الجنوب الغربي نحو عيديد، ويتضمن المقبرة وقصوراً جميلة، ويوجد الساحل بالناحية الشمالية للسوق. ويقع حي الحاوي جنوب حي النويدرة، وفي منتصف المسافة بين هذا الحي وحي المجاف وهو عبارة عن جمهورية مستقلة لإحدى عشائر السيد وتسمى الحداد، بينما ينحصر حي الحالف بين الساحل وحي النويدرة بالناحية الشمالية. أما بالنسبة للحصن القديم في تريم فقد شُيد فوق جرف منخفض ويحيط به السوق وحي الخليف والساحل، ويعرف هذا الحصن بقصر الرنات وقد أعيد بناؤه في عهد السلطان عبد الله وتبدو عليه آثار التجديد من الخراب الذي لحق به منذ فترة ما قبل الإسلام، ويلاحظ المشاهد العديد من البوابات -والتي تسمى السدَّة- على السور المحيط بالمدينة وتخدم كل بوابة من هذه البوابات أحد طرق المواصلات المحلية من وإلى المدينة. وأطلقت الأسماء الآتية على هذه البوابات بدءاً بالناحية الغربية ومروراً بالنواحي الجنوبية والشمالية والشرقية: بوابة أنبار وتخدم طريق عيديد، بوابة جادين وتغطي جهة سيئون، بوابة لوميع على طريق الشحر، وسرور بن سعيد لطريق عينات وقبر هود. وأخيراً بوابة محبوب على الطريق المتجه شمالاً إلى دمون.

لقد ودعت آسفاً كل الذين استضافوني بمدينة تريم واصطحبت معي شكري، خبير الجيولوجيا بالبعثة المصرية وعبرنا بوابة جادين في طريقنا إلى سيئون. وبعد مغادرتنا تريم بقليل توقفت السيارة بسبب ثقب في أحد إطاراتها وبينما نحن في انتظار إصلاح العطب توقف معنا اثنان من بدو قبيلة العوامر وكانوا يسيرون في اتجاهنا نفسه، توقف الرجلان وتبادلا معنا أطراف الحديث، علمت منهما أنهما أتيا من آبار ثمود وثميد بوادي ينحدر في اتجاه الربع الخالي، ويصب في نواحي جبال

حضرموت، وأكد لي الرجلان -رداً على بعض تساؤلاتي- بأنه لا يوجد في بلادهم تلال أعلى من منحدرات نيد (نجد) الشاهقة، وهذا الاسم الذي يطلقونه على الهضبة التي تقع شمال وادي حضرموت، وبهذا يميزونها عن (هيد) حيد، حوق الواقعة بالجهة الجنوبية للهضبة. وواصل الرجلان إفادتهما بأن عوامر الرمال يعدون أنفسهم من رعايا ابن سعود وأن اسم زعيمهم ابن ركاض. وقد لاحظت بوضوح مظاهر انبهار هؤلاء البدو بمظاهر الرقي والتمدن والحضارة المنتشرة في الوادي.

لقد سبق أن أُخطر السيد أبوبكر بأننا في طريقنا إليهم وعند وصولنا إلى منزله -والذي سبق أن نزلت فيه في زيارتي السابقة ضيفاً على ابنه السقاف- وجدت حشداً كبيراً من الضيوف الذين تمت دعوتهم على الغداء. وكان بين هؤلاء الضيوف السلطان علي وشقيقه حسين. وقبل تناول طعام الغداء أخذت حماماً في حوض السباحة الكبير وكان الغداء دسماً وهو يتكون من أطباق غربية، مثل: حلوى المانقو، اليوسفي والكمثرى وكلها معلبة ومستوردة إما من جاوه أو اليابان. كانت غرف المنزل مزدانة بصور فوتغرافية مكبرة لمساكن عائلة الكاف بتريم وسنغافورة، إضافة إلى لوحات زيتية تمثل مناظر طبيعية خلابة من اليابان تعكس مناظر القمر والنهر والأشجار المثمرة والمزدهرة والقلاع والجبال والمراكب الشراعية.

كان السيد أبوبكر مشغولاً بمشروعه الخاص بإقامة وإنشاء ورشة في سيئون، إضافة إلى تطوير حديقة زهور وفواكه أنموذجية بواسطة الري الصناعي من الآبار المتوافرة. وأثناء ساعات النهار كنت أشاهد المهندس التركي واسمه قادر وكانت وسيلة التخاطب بيننا هي اللغة الألمانية والتي كان -يجيدها أكثر مني-، وكان إحساسي الشخصي أن السيد أبوبكر قد جلب لنفسه مشاكل لا حصر لها، بتعيين هذا المهندس براتب قدره مئة وخمسون ريالاً شهرياً. وقد كان الاتفاق الأساسي بين الرجلين هو خمسون ريالاً شهرياً، إلا أنه وبعد أن لاحظ المهندس التركي بذخ وكرم مخدومه طالب بزيادة الراتب إلى ثلاثة أضعاف مع التهديد بعدم الذهاب إلى حضرموت. وقد

تمت الموافقة على جميع مطالب المهندس التركي والذي أصبح يتصرف وكأنه أمير. ولاحظت أنه لا يقوم بأي عمل يدوي فيما يتعلق بالإنشاء وإقامة الورشة المعنية، وطلب مني المهندس معاينة تصميم الورشة، والتي يفترض أن تسع الأعداد الهائلة من الماكينات والأغراض غير الضرورية، والتي طلبها المهندس شخصياً بأسعار لا أشك مطلقاً أنها تضمنت عمولة لا بأس بها. وعلى كل حال، وحتى وصول وتركيب الماكينات فليس في نية المهندس التركي القيام بأي عمل مفيد، ويبدو أنه قرر أن يظل خميرة عكننة لمخدومه وللآخرين لدرجة أنه رفض تناول الطعام مع السيد أبوبكر بحجة أن أي شخص في مكانه ومنزلته لا يمكن أن يأكل من طبق انغمست فيه أيادٍ أخرى حسب العادات والتقاليد العربية في الأكل. ويبدو أنه كان يشغل وظيفة متميزة في بلاده وليس كمهندس قطعاً. لقد خدم الرجل في شرطة إسطنبول حيث كان مديراً للقسم السادس. وكانت مسؤولية هذا القسم تنحصر في مراقبة وتنظيم حركة مرور القطارات والسيارات بالعاصمة. وقد أخبرني أن دخله الشهري الأدنى كان يعادل أربعة آلاف ريال شهريًا، هذا المبلغ الكبير لا يشمل الراتب الشهري كما اعترف لي صراحة، بل هو عبارة عن نصيبه الشخصي في الرشاوي والغنائم! وقد شرح لي الأمر بكل وضوح، قائلاً في حالة الحوادث المرورية كنت أتولى أمر القضية وإجراءاتها. وكان السائق الذي يتسبب في الحادث المروري على استعداد تام لدفع أي مبلغ أطلبه بدلاً من الخضوع إلى إجراءات قانونية معقدة ومطولة تنتهي بالسجن لفترة زمنية محددة. ولهذا -وكما ترى- فإنه من السهل جداً كسب مثل هذا الدخل. ولم أتمالك نفسي من سؤاله لماذا ترك الوظيفة التي تدر عليه الذهب والفضة وتؤمن له المستقبل الزاهر وحضر إلى هنا لمضاعفة مشاكل العطالة المتفشية بعدن؟ أجابني الرجل: آه، وواصل حديثه: «لكن تلك قصة محزنة. كانت بطلتها امرأة وكان عليَّ مغادرة إسطنبول بأسرع ما يمكن». وتخيلت أنه قام بابتزاز امرأة من علية القوم وكانت نتائج فعلته وخيمة بكل المقاييس، وإنني على ثقة بأن أي رجل في مثل عمره -التاسعة والثلاثين-، كما يدعي، ينتظره

الكثير من الإثارة والزخم في مقتبل أيامه. غير أن مرحلة حضرموت بالنسبة للمهندس ستكون قصيرة جداً. وستكون (للأسف) خالية من أي إثارة وتشويق، ولقد شعرت بشيء من الأسف والأسى والشفقة على هذا الرجل!.

عند مغيب شمس يوم ١٦ سبتمبر سمعت صوت ثلاث طلقات نارية من مدفع قديم معلنة رؤية هلال شهر رجب وقد حجب الرؤية عنا نتوء الجرف الشاهق بالناحية الغربية للمدينة ويعد اليوم الأول من شهر رجب إجازة محلية (رجبية) وتقام طوال هذا الشهر العديد من الاحتفالات والزيجات المحلية. تم تشييد منزل السيد أبي بكر قبل سنتين، أي في عام ١٣٥٤هـ وتم حفر نقش تذكاري على باب المنزل هكذا:

ب ي ت ك ل م ن د خ ك
٢ ، ١٠ ، ٩٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٤ ، ٦٠٠ ، ٣٠ ،

ف ي هـ ك أ ن أ م ن أ
٣٠٠ ، ١٠ ، ٥ ، ٢٠ ، ١ ، ٥٠ ، ١ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ١ = ١٣٥٤[1].

وفي مساء اليوم نفسه اصطحبني السيد أبو بكر في سيارته لزيارة السلطان علي في منزله الفخم بالرغم من أن السيول كانت قد أحدثت به بعض الأضرار وقد سيطرت السياسة المحلية وأمور الحكم على النقاش الذي دار بين ثلاثتنا وفي صباح اليوم التالي غادرت سيئون وأنا أكثر قناعة لفشل اتفاقية ١٩١٨م التي لا تستحق أكثر من هذه النهاية بالرغم من أن لها حسنة واحدة هي أنها وضعت نهاية للعداء المتحكم بين قبيلتي القعيطي والكثيري مما أتاح لحضرموت هدنة واستقراراً استمرا مدة عشرين سنة كاملة، ومع ذلك لم تكن أحد طرفي السلام، أي الطرف الذي لم يوقع على الاتفاق ولم يفوض غيره بالتوقيع على الشروط التي فرضت عليه من قوة عظمى، لم يكيف هذا الطرف نفسه أبداً لسلام يفتقر إلى العزة والكرامة. ويبدو هذا الأمر وكأنه

(١) هذا بحساب الجمَّل والذي يقوم على وضع قيمة عددية لكل حرف وصياغة بجمع هذه القيم لتعطي الكلمات والتاريخ المطلوب لتحديد تاريخ معين ومعناه وهنا (بيت كل من دخل فيه كان آمناً). (المراجعون).

رجع الصدى لاتفاقية فرساي ومنذ ذلك الوقت بدأت عدن تبدي اهتماماً كبيراً وغير عادي للوضع السياسي في حضرموت. لقد ضُربت قبائل الجبيري والصيعر والحموم بالقنابل وأجرى المستر انغرامز، المستشار أو الممثل المقيم الذي عين حديثاً أجرى محدثات مع سلاطين الكثيري والقعيطي وتولى مزاولة واجباتهم وسلطتهم الإدارية وتم ضم حضرموت إلى الإمبراطورية البريطانية حسب القرار الصادر في مارس ١٩٣٧م. وقام سلاح الجو الملكي البريطاني بزيارة إلى شبوة، وكنت آمل أن لو تمكنت سلالة الكثيري الحاكمة من التوصل مع النظام الحاكم الجديد، إلى شروط أحسن من تلك التي توصلت إليها مع العهد البائد كما المستجير من الرمضاء بالنار. توفي السلطان علي نهاية سنة ١٩٣٨م واستلم مقاليد الحكم والإدارة من بعده شقيقه حسين.

بدأت نشاطات اليوم التالي بحمام منعش وجميل بحوض السباحة، وأخبرني مضيفي أثناء تناول وجبة الإفطار بأنني أحتاج إلى بعض المؤن والتموينات لرحلة الاثني عشر ميلاً إلى شبام والتي ينبغي الوصول إليها عند ساعة الغداء وأخبرته بأننا لا نحتاج إلى أي شيء إلا أنه أفادني لاحقاً بأنه قد وضع صفيحة بسكويت في سيارتي؛ ذلك أنه ربما نحتاجها، وشكرته على عطفه وكرمه، بدون الخوض في المزيد من المناقشة. ولم أكتشف إلاّ بعد الظهر، أن صفيحة البسكويت كانت عبارة عن طرد ضخم معبأ بأشهى وأطيب أنواع المعلبات، والتي بقيت معي لأكثر من أسبوعين، مثل: البسكويت وحلوى المانجو والكمثرى واليوسفي والأناناس وعلب الحليب المكثف وإنني لَجِدٌّ شاكر وممتن لكل هذا وخاصة علب الحليب. ومرة أخرى أجد نفسي مضطراً لتكرار شكري وتقديري للسادة آل الكاف ومواطني حضرموت عامة وقد كان كرمهم هذا الذي طوقوني به، تجربة شخصية ثرية ما كنت أستبدلها بأي شيء آخر. وهذا أمر مثير للاستغراب والدهشة حتى على نطاق الجزيرة العربية نفسها.

عندما وصلت مدينة شبام علمت أن السلطان علي بن صالح خارج المدينة في رحلة إلى القطن. وقد تم إصلاح السيارة المعطوبة أما بقية مجموعتنا التي تركناها

وراءنا هنا قبل خمسة عشر يوماً فقد فرحوا غاية الفرح بعودتنا بعد أن ذهبت بهم الظنون بأنني قد أكون غادرت المكلا عن طريق البحر. ولا يوجد الآن أي عائق يحول دون انطلاقنا، ومع ذلك فقد انتظرنا حتى تناولنا طعام الغداء بمنزل أسرة آل العجاج وجددت نشاطي بإلقاء نظرة على مناظر شبام الرائعة. تحرك ركبنا بعد الظهر وصحبتي حسين حتى القطن وعاد أدراجه في الليلة نفسها. وواجهتنا بعض المشاكل عبر السهل المنبسط بين المدينتين بسبب الأمطار التي هطلت حديثاً، أما قرية خشامر التي تقع تحت الجرف من الناحية اليسرى فكانت تبدو كجزيرة مستقلة وسط الأراضي الخاضعة لقبيلة القعيطي وتتبع لإحدى عشائر اليافعي واسمها آل علي بن جابر.

استقبلني السلطان علي بحفاوة بالغة وأنزلنا في قصره الذي سنقضي فيه الليلة. كان السلطان مشغولاً -أثناء غيابي- بسبب بعض حوادث النهب والسلب التي قام بها -قبل فترة وجيزة- مجموعة من قطاع الطرق وأرسل السلطان فرقة من الجنود الرقيق لمحاصرة المجرمين، وقد وصلت الأخبار بنجاح الحملة وتمكنها من السيطرة على الوضع. وبينما نحن جالسون نتجاذب أطراف الحديث سمعنا صوت إطلاق نار بكثافة شديدة كما لو أن ثورة قد اندلعت. انتابني بعض الخوف والفزع إلا أن السلطان علياً أكد لي أن الذين يطلقون النار هم مجموعة من جنوده العائدين بمناسبة عودتهم وانتصاراتهم. ولا بد أن هؤلاء الجنود قد استخدموا في الإعلان عن انتصاراتهم هذه ذخائر أكثر من التي كسروا بها شوكة الخارجين على القانون. وعلى أية حال فقد كان السلطان علي سعيداً بنجاح مساعيه ومجهوداته لوقف غارات القبائل على رعاياه. وكانت هذه الانتصارات حديث المجتمع وقد وجدت مواطني ربيعة يتحدثون عنها في مساء اليوم الثاني، إضافة لذلك فقد طلب السلطان علي من مواطني شبوة تسليم الرجال الذين تخلوا وهجروا المستر بيرن في الصحراء وتم حبسهم بسجن القطن وادعوا أن المستر بيرن هو الذي تخلى عنهم وتركهم في الصحراء. وقد تم إطلاق سراحهم في نهاية الأمر. كان طموح علي المباشر هو إخضاع الصيعر ونهد لسيطرته

المباشرة إلا أنه اشتكى من عدم توافر الأسلحة والذخائر اللازمة والضرورية لتحقيق هذ الحلم، وقد سألته عن رأيه حول شبوة مشيراً إلى ادعاء سلطات عدن بتبعية الإقليم لسلطان العولقي واعترض الرجل بشدة وأكد أن شبوة تقع تحت نفوذه المباشر مع العلم أن سكانها مستقلون.

وصلنا هينن في صباح اليوم التالي وقد استقبلنا سكرتير محمد بن آل مرتع، نيابة عن مضيفنا الذي غادر البلدة، لتقديم العزاء والمواساة لبعض الأقارب والأصدقاء في ديار آل بقري وكنت أخشى أن نضطر لقضاء الليلة في هذه البلدة إلا أن غياب محمد بن آل مرتع بدد هذه المخاوف وبعد أن تناولت طعام الغداء خلدت لقيلولة قصيرة وبعدها ودعنا وادي حضرموت نهائياً بعد إقامة مستمرة امتدت لمدة تزيد على الشهر تقريباً، وسط أهله الطيبين. ومع أن برنامج الرحلة كان مشوشاً ومضطرباً إلا أنني لست نادماً على شيء أبداً.